بسام شمس الدين

هفوة

(1)

تمضي الطفولة في حياتنا مثل لمعان البرق، بحيث لا يبقى من آثارها سوى أصداء فرح يأبى الرجوع، تذهب مثل كل الأشياء الجميلة التي نصادفها في طريقنا، ولكنها تفارقنا ونحن في مقتبل الاندهاش والمتعة، مثل حلم بهيجٍ تنتزعنا منه قرعات عنيفة على بابٍ موصد، كان هذا شعور زهرة عندما شارفت مرحلة البلوغكانتً قد ضاقت أرديتها ولم تعد تناسب جسدها الفتي، وفي سرية شديدة بزغت أحلامها ونزواتها، وأخذت تراودها بإلحاح عجيب. ولكن وجدت أنها تعيش تلك الأحلام بمفردها وليس لديها أي فرصة للتعبير عنها، أو التحدث بها لأي كائن حي، والسبب في ذلك أنها غدت منذ ذلك الحين محاصرة جوف المنزل..

كان الحاخام "حاييم إسحاق" رجلاً محافظاً وغيوراً، ومؤمناً بكل ما أنزل على موسى في التوراة، ولكنه لم يشأ الارتزاق عن طريق الدعوة في "الكنس" مثل غيره من الأحبار. ولذلك عمل لسنوات نجاراً في سوق الخشب داخل صنعاء، وظل يقتصد في النفقة واضعاً البُقشة فوق البُقشة* والريال على الريال، حتى استطاع أن يجمع ثروة صغيرة من كد جنبه، استغلها في بناء ورشة نجارة في قلب قاع اليهود، لكي يكون قريباً من زهرته المتفتحة. فقد كان يرى جسد ابنته يثور وينمو، ويتمنى لو يستطيع أن يوقف ثورته ونموه، ثم يدعو الله في السر والعلن أن يكبح جماح فتنتها ويغل سطوة شبابها. وظل يفكر في هذا البلاء الذي نزل عليه، حتى هيئ له أن منزله محاط بالنظرات والعيون المتلصصة التي تنهش مفاتنها وتتخيل عريها، وتوصل بخياله الخصب الظنون إلى ما يفيد بأن أي جسد مزدهر المفاتن، لا يمكن أن يزدهر من فراغ، وإنما تكمن من ورائه غريزة نشطة وسريرة متهتكة، وهذا جعله يتمنى لو يستطيع الغوص في أعماق ابنته ليسترق أفكارها، ولما كان الأمر مستحيلاً، فقد أحكم عليها حصاره، وحرص على ألا تغيب خارج المنزل أكثر من وقت الصلاة في أيام السبت.

وفي أحد السبوت أصيب الحاخام حاييم بوعكة شديدة أقعدته في منزله، مما أتاح لابنته زهرة الذهاب إلى الكنيس بمفردها، وفي طريقها إلى هناك، أحرت جسدها نظرات المارة، وتعقبها بعض المراهقين، وأخذوا يلسعون مسمعها بألفاظ فاحشة لم تسمعها من قبل البتة، ولكنها رغم ذلك فهمت معانيها الفاضحة، ولم يكن بوسعها فعل شيء سوى الصمت والسير باعتدال دون أن تلتفت.

وبرغم خوفها المؤكد من مطارديها إلا أن ثمة غرور جرار انتابها، وذلك عندما أدركت أنها محل إعجاب الفتيان واهتمامهم، وفي ذلك اليوم فقط، استطاعت أن تتبادل الحديث ومجموعة من الفتيات اليهوديات، وتبادلت النظرات بحياء تام وزمرة من الفتيان اليهود الذين عرفتهم في طفولتها، ووقعت عيناها على كل شيء صادفها، وفي ذلك النهار اكتشفت أن احتجابها ليس طبيعياً، بل إنها الوحيدة من فتيات اليهود التي تحجب قسراً، وتمنت من صميم قلبها لو يظل والدها طريح الفراش أياماً أخرى، ولكن أباها الغاضب ركل مرضه ونهض كالحصان في اليوم التالي، ليحرمها من تلك المتعة واللحظات السعيدة التي عرفتها، ثم عاتبها عتاباً شديداً رغم عودتها المبكرة واتهمها بارتداء ملابس غير لائقة، وأوصاها بأن ترتدي الشراشف الواسعة المهلهلة، لأن الرب يريد ذلك. ثم يرد اللوم على أمها التي لم تفلح في تربيتها حسب زعمه، وفي آخر المطاف يدعو عليها بالهلاك.

---

* البُقشة: أصغر فكة في ريال ماريا تريزا المتداول في المملكة المتوكلية، والذي يساوي أربعين بقشة.

كانت شمعة ضعيفة بالفطرة وغير مبالية بغيرة الحاخام وحدبه، لأنها لا تستطيع التمييز بين الخير والشر، وتجهل الغضب والحزن والخوف من النار الذي يفترس قلوب الأتقياء، إنها كتلة لحم فاقدة الإحساس تتحرك بقدمين، كما وصفها الحاخام حاييم. وكلما عاد إلى منزله في المساء يتطلع إليها، ويسألها بضيق:

ـ هه، كيف أمست الفتاة؟

تجيب بصوت متماوت قائلة:

ـ في أحسن حال، صدرها ناهد، ومؤخرتها بارزة، وأردافها تتماوج عند أقل حركة.

ـ لقد تخلى عني الرب، منذ أن رأيتك ليلة الدخلة.

يقول لها ذلك، محاولاً أن يتحاشى فكرة الانقضاض عليها وضربها، لأنها لا تشاطره في الإحساس بالغيرة على ابنتهما الوحيدة، لقد أوصاها بتجويعها، وحرمانها من أكل اللحم والوجبات المليئة بالدسم، لتختفي زوائد أردافها وأثدائها وخاصرتيها، إلا أن الأم لم تكن جادة في رقابتها، وتركت الأمور تجري في مجراها الطبيعي. وظل الأمر كذلك حتى واتت الحاخام حاييم فكرة تزويجها بحبر يهودي اسمه سالم عبدول، يكبرها بعشرين عاماً، ويعمل أميناً لصندوق البر والإحسان اليهودي، ، وقد عزف عن الزواج، ناذراً نفسه للعبادة وخدمة الفقراء والمحتاجين، ولكن

الحاخام أغراه بالزواج بفتاة صغيرة، فقبل سالم العرض وتزوج بها في غضون أيام قلائل، لأنه كان في أمسّ الحاجة لمن يعد له الطعام ويغسل ثيابه المتسخة. وقد بات يحسده عليها جميع أبناء الطائفة اليهودية الذين في سن الزواج، ولكن عندما سلّمته زهرة نفسها لم يفعل في جسدها الهائج شيئاً يستحق من أجله الامتنان، وكل ما استطاع فعله هو القذف داخل مهبلها عدة نطف بيضاء لزجة، استطاعت واحدة منها السير ببطء إلى عمق رحمها لتكون بذرة لجنين. فرح الحاخام حاييم بالنبأ، واستبشر خيراً، لأنه كان يعتقد أن من يستطيع تحبيل امرأة، يكون قد أطفأ حرارتها، وقضى على نزواتها الجنسية.

وظن أنه في ذلك الوقت قد تمكن من وأد ثورة جسد ابنته إلى الأبد، هي أيضاً تظاهرت بالرضا، وتصالحت مع جسد سالم البارد، أرادت بذلك انتظار خروج البذرة من جسدها، بدون فوضى أو أضرار، وفي أثناء مخاضها، سقطت خشبة طلح ضخمة فوق رأس أبيها، وهو في ورشة الخشب، وفي الوقت الذي خرجت فيه روحه، سقطت إلى النور طفلة صغيرة هي ابنة زهرة من سالم، وسميت (حنّا).

ولم تحزن زهرة كثيراً لما حدث، ولكنها تقمصت الحزن تقديراً للموت ذاته، ولمشاعر أبناء الطائفة اليهودية المحزونين على حاخامهم ، ومنذ ذلك الحين صارت تطل على شوارع القاع الفسيحة،

وتتمشى في الأسواق، حتى اعتاد الهواء الطلق وأشعة الشمس الشارقة على جسدها البض، كما اعتادت عليه عيون الناس أيضاً، ولم يعد أحد يندهش لرؤية مفاتنها، لأنها صارت متاحة للأنظار، شيء واحد مازال يؤرقها ويثقل على روحها المتخففة من القيود، وهو زوجها سالم عبدول، هذا الأخير لم يكن يهتم بها أو يعيرها أي انتباه، وإنما كان يقضي معظم وقته في الكنيس، وقد أضحى متكلفاً في تعامله معها ووقوراً إلى أقصى الحدود، حتى بدا لها وكأنه غريب أو أجنبي.

وكعادته ظل خاملاً لا يستطيع أن يجاري جسدها المتقد وعواطفها الجياشة، ومن أجل هذا لم تكن سعيدة معه منذ أن عاشرها في أول ليلة، ولكن حتى ذلك الوقت، لم تكن المطالبة بحق اللذة الجنسية معروفة لدى النساء، وطالما يكتنف المضاجعة التي تمارس عادة في ظلام الليل، الغموض

والسرية، كما إن البوح باللذة أو التأوه أثناءها يبدو أمراً شاذاً وغير مستحباً، إلا أن الأمر اختلف مع زهرة، رغم كونها رقيقة وخجولة مثل سائر نساء عصرها، إذ أن تعطشها الشديد للحب أرغمها على أن تبدي الكثير من الجهد، لإنعاش جسد سالم وتحسين أداءه، وسرعان ما تعلمت ألا تقف مكتوفة الأيدي تحته، لقد أجبرتها سلبيته أن تمتطيه وتعضّه وتعتصره، لكنها وبغضب تلقي به جانباً يائسة من استجابته، ورغم ذلك لا يُبدي أمامها ذرة استياء أو خجل، لأن هنالك أشياء كثيرة تشغله، أما اللذة أياً كانت، فإنه مثل كل رجال الدين لا يعطيها وزناً في الظاهر، لأنها بضاعة بائرة وحقيرة مقارنة بما أعده الله للمحسنين والمحرومين في الدار الآخرة. وأصيب بالعجب من تلهفها على اللذة الجنسية، وأرعبه تعاملها الغريب مع جسده، حتى خامره شعور بأنها داعرة، واستفحل الأمر حتى صار يخشى من اللقاء الجسدي، ولا يؤوب إلى فراشه إلا في وقتٍ متأخرٍ من الليل، وفي تلك الأثناء يجدها قد نامت، فيتسلل على رؤوس أصابع قدميه لكي لا يوقظها، حتى يندس جوارها تحت اللحاف، وما في كل مرّة تسلم الجرة، كما يقال في المثل.

في يوم من تلك الأيام، أتى سالم متسللاً في الظلام حتى اندس جوارها، وإذا به يشعر بأنفاسها المضطرمة تلفح جسده، ثم لمح جسدها يتهيأ للجلوس، وبعد قليل من الصمت زفرت بجفوة شديدة

أوجس خلالها بالشر، ثم قالت بهدوء مخيف :

ـ لا أدري ما يدفعك إلى الغياب حتى وقت متأخر من الليل؟

أجاب بصوت متقطع بتثاؤبه:

ـ ما أغرب سؤالك هذا، إنني مثل كل يوم أتعبد في الكنيس، وأتلقى أموال الصدقة وطلبات الفقراء.

ـ لا يأخذ مولانا وحامينا ولي أمر المسلمين كل هذا الوقت رغم مشاغله الكثيرة في (المقام الشريف)*.

ـ أنا مسئول أمام الرب على رقاب ألف عائلة يهودية فقيرة، و أتحصل على رزق وفير، ولا أظن أن هناك شيء ينقص هذا المنزل.

ـ لِمَ لا تبعث بحصصهم إلى قراهم ومدنهم، وتكفيهم مشقة الترحال، ثم تكفي نفسك مشقة السؤال. أم أنك تحب أن يلهث الفقراء وراءك، ويزدحمون حولك؟

ـ كل شيء يأتي بمشقة يا امرأة، وقد جاء في سفر التكوين إن الرب فطر السموات والأرض في سبعة أيام بلياليها، وهذا يدل على مشقة، وجاء في التلمود....

قاطعته صائحة بغضب:

ـ دع الخطابة لأهلها، ولا تهرف بما لا تعرف، والأفضل لك أن تنام على أن تقوم بتفسير الكتاب المقدس.

عند ذلك ارتفع صوت بكاء الطفلة (حنّا)، فتحولت زهرة إليها وهدهدتها قليلاً حتى نامت. كانت تنتفض غيظاً وحنقاً، لأن شكواها لم تثمر، والرجل لم يفهم بعد أن كلمة رقيقة بمقدورها أن تطفئ براكين امرأة ساخطة ، وها هو يغط سريعاً في نوم عميق، وكأن شيئاً لم يكن. وفوق ذلك أزعجها صوت شخيره المنتظم، وفي تلك الوهلة بالذات، فكرت أن تثب فوق رأسه لتكتم أنفاسه وتقتله خنقاً، إلا أن فكرة القتل كانت فظيعة، ولم يكن لديها شجاعة كافية لتنفيذ ذلك..

---

* المقام الشريف : هو مقر الحكم أو قصر الحاكم.

ومع مضي الأيام أخذت تتصاعد وتيرة صوتها ومواقفها، وطفقت تواجهه بعدد من الاتهامات والجمل الاستفزازية :

"أنت لا تعبأ بي ولا بابنتك حنا، نمرض، نجوع، نموت، أنت متزوج بالفقراء والمحتاجين".

"لماذا لا تتكلم معي إلا فيما ندر؟ هل تبتغي ثمناً لألفاظك الجافة؟"

"تظن نفسك محسناً كبيراً، ولكنك لا تحسن التصرف حيال زوجتك".

"أنت ضعيف، ولا تستطيع أن تعامل زوجتك كما يفعل الرجال".

"لست رجلاً يا سالم".

ولأنه كان من أولئك الناس الذين أدمنوا سماع الشكاوى والطلبات، ولا يكترثون، لم تؤثر به هذه الجمل اللاذعة، ولم يفطن إلى شيء من معانيها، عند ذلك قررت أن تضاعف له جرعة الجفوة والإعراض، فصارت تمنعه من أن يلمسها أو

يقترب ناحيتها، بينما ظل يتعجب من حنقها وعصبيتها، وأيقن أن ذلك الجفاء مكيدة من مكائد الشيطان، وما عليه إلا أن يضاعف من أعماله الصالحة نكاية به، لأنه يزيّن في قلب زوجته التمرد ويملي عليها العصيان، فأضاف إلى أعمال البر والإحسان عملاً دفع بها إلى حافة الجنون، حيث حوَّل الطابق الأرضي من منزله المؤلف من ثلاثة طوابق إلى مأوى للفقراء، وألقى عليها خطبة طويلة من خطبه المعتادة، موصياً إياها بأن تعد الوجبات المجانية للمساكين، وأن تحتسب أجر ذلك العمل على الله، لكنها رأت أن حياتها ستنقلب إلى حالة من الفوضى وعدم الاستقرار، وهي بطبيعتها رغم أصولها الدينية لا تهتم كثيراً بأعمال الخير، وليس لديها أي نزوع نحو التقيد بنمط مُلزم من الواجبات.

وقد ظلت مقتصدة في أحلامها من أجل حلم واحد، هو العيش وشريك بسيط خالٍ من الطموحات الكبيرة، شريك كالطفل، يتحدث إليها تلك الأحاديث التافهة، ويشاكسها أحياناً ويعيش معها الطفولة من جديد، بما تحمله من جري وضحك وخصام، وفي آخر المطاف يتحول إلى رجل حيوي جامح يتملكها بكل ما أوتي من قوة وشغف. أما الآن ومن أجل طفلتها، فتطمع أن يقضي سالم معها بعض الوقت في المساء، وأن يُعطِها النزر اليسير من الاهتمام، ولما خاب أملها الأخير، صممت على تقويض حياتهما اللازوجية، وسارعت إلى الكنيس لمقابلة الحاخام يعيش، خليفة والدها حاييم، حيث فرضت تراتبية العمل الكنسي صعود هذا الحاخام ، حدث ذلك رغماً عن أنوف الأحبار، الذين يعتبرون الحزم في تطبيق الشريعة اليهودية، هو ما ينبغي أن يتم لتعزيز سيادة الله في الأرض.

غير أن الديانة اليهودية كانت تعطي الحاخام حرية التصرف في القضايا غير الواضحة في التوراة، ولما كان جميع الأنبياء والصالحين من الرجال، فإن عصمة الزواج كانت بيد الرجل وحده، وليس على المرأة اليهودية، سوى رفع قدميها أثناء المعاشرة الزوجية، والتأوه كذباً لإرضاء الرجل، إلا أن زهرة لم تستسلم مدفوعة من أعماقها، ووقفت أمام الحاخام يعيش، لتواجهه بحقيقة مأساتها. وأخذت تساومه وترجوه أن يفك ارتباطها وسالم. لكنه لم يسمع بشيء مثل هذا من قبل، وأحس أنه أمام مسألة شائكة، ولم يقتنع برغبتها المحضة في الفسخ..

في النهاية أراد أن تأتي بتبرير أكثر إقناعا تدافع به عن طلب فسخ الزواج الذي تقدمت به، فما كان منها إلا أن كشفت عن أعضاءها البيضاء البضة، وقالت بغضب عارم :

" يقول الرب في إحدى وصاياه: اهتموا بالأعضاء التي خرجت عبرها رؤوسكم ، أليست هذه تستحق الاهتمام ؟ أرجوك أيها الحاخام المخلص للرب، أنقذها من عضو سالم النائم ".

ذعر الحاخام مما رأى، ورد طرفه بحركة صارمة تنم عن تذمره، وسارع إلى فسخ قرانها ببضعة أسطر خطها في ارتباك وعجل على ورقة مجلدة، ثم صرفها من أمامه بغضب، حتى لا يغويه الشيطان بواسطتها، وصار يطلب من الله الرحمة والمغفرة. وبعث لساعته إلى سالم عبدول وثيقة الفسخ، في حين تقبل الأخير ما جاء بها بنفس راضية، لأنه كان لا يكترث بأي شيء يعيقه عن العبادة ومسائل البر والإحسان، ولكنه رفض أن يكفل الطفلة (حنّا) حتى تبلغ سن العشرين، ذلك أن ثمة شرط في الوثيقة كان لا يعفيه من كفالتها، وهذا التصرف أثلج صدر زهرة التي تعمدت وضع ذلك البند لكي تدفعه إلى عدم قبوله، فقد كانت تدرك من خلال عشرتها معه أشياء كثيرة من طباعه، وهكذا وافق سالم عبدول أن يخلي سبيلها على أن يبقى الفسخ من طرفها طي الكتمان.

بقي عليها أن تدفع ثمن تحررها، وهو البحث عن مصدر للعيش، هناك ورشة النجارة ولكنها مقفلة، وليس لديها أي خبرة أو مهارة لتشغيلها، وظلت طيلة تلك الليالي اللاحقة تفكر في وسيلة تقيها من اللجوء إلى صندوق البر والإحسان الذي يشرف عليه سالم، حتى فطنت إلى فكرة إيواء الفقراء والمسافرين مقابل المال، ولكنها فضلت الدفع العاجل على الأجر الآجل المحتسب على الله، الذي اختاره سالم.

من حسن حظها، كان هناك عدد من المسافرين، تغلق أبواب المدينة في وجوههم عند الغروب، فيلوذون بالقاع، لأنها تقع في محيط مفتوح خارج أسوار مدينة صنعاء، ولكنهم لا يجدون بها غير الأقبية والكنس، وهذه الأخيرة أوصدها الأحبار بالأقفال الثقيلة حتى لا تدنسها أجساد المسلمين.

فكرت ببناء سمسرة للنوم والاستجمام، تؤجر فيها (الدكاك)، وتقدم فيها الوجبات والقهوة للمسافرين، ولكنها احتاجت إلى تصريح بالبناء من عامل القاع أو من ولي أمر المسلمين، فبعثت خطاباً إلى العامل تطلب إذناً ببناء السمسرة، وبعد يوم واحد، عاد خطابها موقعاً ومزداناً بهذه الكلمات الجافة :

" الحُرَّة زهرة اليهودية، لم يسبق أن أعطينا إذناً ببناء سمسرة لأي امرأة، لأن ذلك مخالف للأعراف والتشريع المحمدي، ولا أظن ولي الأمر سيجيز هذا المشروع ".

رغم ذلك الرد المحبط قررت دخول صنعاء، فطوت ستارتها الحمراء حول جسدها، وانطلقت صوب المقام الشريف، كان ولي أمر المسلمين في يوم الأربعاء يستقبل الزوار وأهل الالتماسات، وعندما جاء دورها دخلت تهز جسدها اللدن، بقامة طويلة، وخلفية متماوجة مزرورة تتراقص من دون أغنية، اقتربت من ولي الأمر بغير وجل، وأمطرت رأسه بالقبل، فتأثر بجرأتها وحسن تكوينها، وشرع يتنبه إلى مفاتنها حين تخلصت من ستارتها متعللة بحرارة الصيف.. بدت تعابير وجهه تنبئ عن ندم خفي وحزن عميق، للمرة الأولى تهتز أعماقه بعنف عند رؤيته لامرأة، إلا أن لكل شيء ذو قيمة ثمن باهظ، لقد فرض عليه مقامه، ألا يبدي ميلاً إلى النساء، وأكثر من هذا وذاك، إن هذه المرأة الفاتنة يهودية، وهذا يجعل أمر الدنو منها أو التفكير بها محل استهجان الرعايا المسلمين. ولكن وبمنطق عجيب استطاعت أن تقنعه بمشروعها، وأن تفوز بابتسامة مشرقة من وجهه الودود، ثم تشجعت وطلبت قرضاً يساوي مائة ريال ماريا تريزا، فأقرضها المال ووعدها بالحماية والمساندة، وما إن خرجت حتى مرقت دمعة كبيرة من عينه كما قال شهود من الحاضرين، ولم يدر أحد بما دار في خلد ولي الأمر ساعتها،ولكن قيل إنه قال يخاطب من حوله مازحاً:

ـ لا أدري لماذا كُتِب علينا الشقاء معشر المسلمين، فنرى اليهوديات الجميلات يفلتن من أيدينا.

ضحك الحاضرون لهذه المزحة، وقال ولي العهد بتشاؤم:

ـ أن تنشئ امرأة يهودية سمسرة، فهذا يعني اختلاطها بالرجال، وهذا مخالف لتعاليم ديننا الحنيف.

ولكن لم يأبه أحد في المجلس لقول ولي العهد يومذاك.

وشرعت زهرة ببناء السمسرة، حيث حشدت العمال اليهود لإنجازها، كانت مساحتها تقدر بمائتين متر مربع، تتألف من الداخل على مائة دكة حجرية غير متلاصقة، وهناك كوّات وغرف صغيرة معتمة، تستخدم لاستبدال الملابس، وثلاثة حمامات تقليدية (مطاهير) ، عندما تعصف الريح أو تسري نسمات الليل الهادئة، تنبعث منها الروائح الكريهة، ومطبخ صغير مجهز بموقد وعدة تنانير فخارية لإعداد القهوة والخبز وبنت الصحن، ويقطينة كبيرة لتخزين اللبن، وعلى الجدران نوافذ جانبية مربعة ينبعث منها الهواء البارد، وتتدلى عليها أكواز الماء لتبريدها. ومن خارج السمسرة فناء واسع به استراحة للنزلاء، وزريبة للمواشي.

ولم تمر واقعة بناء السمسرة بسلام، إذ قامت مجموعة من الأحبار، برفع عريضة التماس إلى ولي الأمر، يطلبون من خلالها تحويل مشروع السمسرة إلى ملكية رجل من اليهود، وعللوا ذلك الطلب، بما تتمتع به المرأة صاحبة المشروع من سمات تجعلها عرضة للهفوات، إلا أن العريضة عادت ممهورة بتوقيع ولي الأمر وتعليقه الساخر على مضمونها:

"لقد فات الأوان، وقد اقتنعنا بمشروع زهرة اليهودية، وسوف تظل مالكة للسمسرة ما لم تقع في هفوة".

وهكذا وجد المعارضون اليهود أنفسهم في مواجهة وشيكة مع إرادة ولي الأمر وأوامره، فانسحبوا بهدوء حابسين غيظهم وحنقهم في صدورهم المثخنة بالعار، وأخذوا يوسوسون لأنفسهم ويمنونها بإخفاق مشروع السمسرة، ولم تستمر أمانيهم ووساوسهم طويلاً، وعلى عكس ما أملوا وحلموا، فقد ذاع صيت السمسرة وزاد الإقبال عليها يوماً بعد يوم، حتى استطاعت زهرة سداد قرضها لخزينة المقام الشريف في غضون أيام قلائل، ثم استقدمت طباخة صغيرة، دربتها على طريقة إعداد الوجبات الشعبية المألوفة في صنعاء، فيما تربعت هي على دكة عالية عند مدخل السمسرة، وجعلت تستقبل النزلاء، وتتسلم ودائعهم وأغراضهم الثمينة وأجرة المبيت والخدمات الأخرى..

كان البعض من المسافرين يعمدون إلى توقيت أسفارهم للوصول في المساء، إذ كانت تعد الخدمات التي تقدمها السمسرة ترفاً بالنسبة للنزلاء القادمين من البوادي والأرياف، زيادة على ذلك، فإن جسد زهرة وابتسامتها الحلوة وحسن استقبالها، امتيازات مجانية يحظون بها، وكانت تتغاضى عن كثير من النظرات الخليعة والتصرفات المتهتكة لبعض النزلاء، لأنها تأتي نتيجة الحرمان والفصل القسري بين الرجال والنساء، وتتظاهر أنها لم تسمع الألفاظ البذيئة التي تخرج من أفواههم، وبدت مهيأة للرد على ألفاظ الغزل والمجاملة بالمثل، لأنها تملأ فراغاً شاغراً في تجويفها، يعوزه الإشباع والإطراء، كانت بحاجة ماسة لمن يقول لها بأنها جميلة وطيبة ورقيقة، وأن ابتسامتها صافية كالسماء بعد يوم ممطر، أرادت أن يفتح جسدها بشفرة الغزل والصفاء والشقاوة البريئة والمرح، وحتى الملامسات الودودة المتأنية، وطلاقة الوجه، وضحك العينين، لأنها خلاف النساء في ذلك المحيط الكئيب، ترقب مجيء فارسها المحبوب من أي وجهة كانت، ولكن لا بد أن يتصرف بلياقة، وأن يدع عواطفه الصادقة تقوده إلى آخر الرحلة.

ولكن كان النزلاء أجلافاً ، ولا يدركون شيئاً عن شفرات القلوب ، ولا تمثل المرأة بالنسبة لهم إلا بهيمة تمتطى وقت الطلب، وقد أحست بغريزة الأنثى، إن "سالم" منتشر في كل مكان، وأن الرجال فاقدو حرارة اللقاء، التي تذكيها وتضرمها عاطفة الحب. وفي السمسرة رأت بعض النزلاء يسعون إلى استدراجها، وتمثيل دور زير النساء أمامها، وهم يحسبون أن تجاربهم الجنسية في عدن

وأثيوبيا، كافية للإيقاع بأول امرأة يجدونها على قارعة الطريق.. جرّب بعضهم أن يتمادى في الجرأة، ليجس بأنامله ثديها أو مؤخرتها، ولكنها لم تكن لتغفر لهم ذلك التجاسر الحيواني، وصارت تبعث بالشكوى إلى المقام الشريف في صنعاء، وكان الجزاء الموقع على المشتكى به، يأتي حسب لهجة

شكواها، فإن كانت لينة نال عقاباً هيناً، وإن كانت لهجتها مريرة، ينال عقاباً شديداً.

لم يتغير أي شيء خلال ثلاثة أعوام، مجموعة من النزلاء تذهب، ومجموعة أخرى تأتي، ومع هذا ظلت حياتها مستقرة، لا ينغصها أي مكروه، حتى دخل إلى السمرة نزيل شاب أسمر متوسط الطول، حليق الوجه والشارب، على وجهه كدمات قديمة، تمنحه صورة فارس روماني خرج من بين أطلال الماضي، يرتدي بنطالاً رمادياً، وسترة زرقاء داكنة، ورأسه أجعد مكشوف، وشعيرات صدره تطل من تجاويف السترة، سلّم أغراضه إلى زهرة التي استقبلته بالحفاوة نفسها التي تستقبل بها النزلاء الآخرين، ثم ألقى جسده فوق أقرب دكة خالية، وغاص في استجمام جارف، دون أن يخلع نعليه، وبعد أن شعر الرجل بقدرته على النهوض، قام على حيله، واقترب من دكة زهرة العالية وسألها:

ـ هل يمكنني الحصول على وجبة آجلة الدفع؟

ـ لعلك تود أن تتناول وجبة الغداء الآن؟

ـ نعم، أريدها، من فضلك.

ـ ادفع ربع ريال لقاء مبيت يوم ووجبة، أو نصف ريال ليومين ووجبتين، أو ريالاً لثلاثة أيام وثلاث وجبات.

ـ لا أستطيع الدفع المسبق، أعطيني بضمان أغراضي.

ـ عفوك "يا جاري"، أغراضك ليست ذات قيمة، إنها كما يبدو عبارة عن كتب مُجلَّدة، ولن تضمن لك هذه الأغراض سوى المبيت هذا اليوم فقط.

انسحب النزيل بهدوء، وتكور خائباً في موقعه على الدكة، وأبى أن يعترف بالجوع، رغم أن معدته كانت تصدر قرقرات متتالية، كانت زهرة تعود إلى منزلها في ثلث الليل الأول، ويتسلم زمام العمل شاب يهودي متدين اسمه مردوخ، أتى الأخير في وقته المعلوم، وأيقظ النزيل الأسمر، وقال له:

ـ وحق كِلِّيم الله موسى إنك تتكلم وأنت نائم.

ـ آسف، أنا أفعل ذلك حقاً عندما أبات جائعاً.

ـ سأقرضك ربع ريال ثمن وجبة، على أن تسدده غداً. أليس كذلك؟

ـ نعم، أشكرك يا أخي..

ـ اسمي مردوخ "يا جاري"، إننا والمسلمين جيران، ونتبادل هذا النداء.

ـ أنا عولق من عدن، أيها الجار الطيب.

وبعد أن أكل عدد من فطائر الذرة، وقلابة عدس، وشرب اللبن من زمزمية صغيرة، عاد إلى النوم،

ولم يصدر عنه أي صوت أو حركة.

في اليوم التالي، هام في أزقة قاع اليهود، وصار يتطلع إلى المحلات علّه يتلمس من هيئة أصحابها، ما يدعوه لسؤالهم عن احتياجهم إلى عامل، سأل بعض السابلة من أبناء الطائفة اليهودية عن المدرسة. ظن البعض أن الرجل الغريب يسأل عن اسم عائلة أو امرأة، ولكنه بيَّن لهم أن المدرسة، بناء يتألف من عدد من الغرف تسمى الفصول، يتم فيها تعليم الأطفال الكثير من المعارف والعلوم، ويقوم على تعليمهم معلمون يتقاضون رواتب من خزينة الدولة، ولكنهم حسبوه عابثاً أو مختلاً عقلياً أو شارب عدة كؤوس من خمرة القاع (العرقي).

أخبرهم باختصار شيئاً عن نفسه، هو مدرس اللغة الإنكليزية في مدرسة بضاحية كريتر بعدن، وعضو في منظمة سرية تناضل من أجل تحرير الجنوب من الاحتلال البريطاني، وفي الاجتماع الأخير للأعضاء المؤسسيين اقترح فكرة توطيد سلطة الاستعمار في بقية المحافظات، ورأى أن بقاءه لمدة طويلة سيساعد البلد على تحديث بنيته الاجتماعية والسياسية والإدارية والاقتصادية، كان ذلك رأياً غريباً منافياً لطبيعة عمل المنظمة التي تكافح من أجل الاستقلال، ولذلك ارتفعت الأصوات المتذمرة الغاضبة منددة به، وطلب منه الأعضاء اللجوء إلى صنعاء لمدة عام، فقدم استقالته منها ورحل لساعته. لم يفهم أحد ممن سمعوه أي معنى لحكايته، شكله فقط لفت اهتمامهم، وأخذت تحاصره نظرات السابلة المحدقة في بنطاله وسترته وشكله الغريب، ولكنه ظل يتجاهل أمر تلك النظرات المتعجبة، وصادف في طريقه شخصاً يهتف بصوت عالٍ:

ـ من يعمل على تنظيف (مطهار) في المدينة مقابل ريالين؟

ـ أنا أعمل.

هتف عولق من خلف المنادي، فالتفت إليه طالب العمل، وحدّق في هندامه وقال يخاطبه:

ـ هل أنت يهودي؟

ـ أظن ذلك..

ـ تظن ذلك؟ كيف أعرف أنك يهودي؟ أين قفة رأسك، والزنانير* المظفورة.

أجاب عولق بضيق:

ـ أنا أعمل ما تريد، أنا أعمل أي شيء.

ـ يهود آخر زمن، هيا بنا.

قالها الرجل لاوعاً شدقه بتعجب، وسلك طريقاً جانبياً وتبعه عولق دون أن يحاول الاستفسار عن نوع العمل، مضيا في صمت المتخاصمين حتى دخلا المدينة المسورة عبر أحد أبوابها، وعبرا زقاقاً حتى وصلا إلى آخره، ثم انعطفا وتوقفا أمام منزل ذي ستة طوابق، ثم ارتقيا سُلّماً، إلى أن بلغا المكان المنشود، كان ذلك الموضع حماماً تقليدياً، أشار (الصنعاني) إلى التجويف الذي يستخدمونه للتخلص من فضلاتهم، وقال مشيراً إلى باب جانبي صغير:

ـ ستقوم بإزالة البراز عن هذه الحفرة، وهذا هو المدخل.

ـ ماذا؟ أنظف هذه القذارة! هل هذا هو العمل؟

ـ نعم، ألست يهودياً؟ ريالان ليست بالقليل، لا تخش من النجاسة، لأن فضلات المسلمين هي أطهر

---

* الزنانير: ذؤابتان مظفورتان من الشعر يتميز بهما اليهود في اليمن.

من فضلات العالمين، لأننا أمة خاتم الأنبياء مُحمد.

ـ ما دام الأمر كذلك، أعطني مجرفة وأوعية وخرقاً واقية.

أجاب عولق بتهكم، وفكر في أن يتنصل عن هذا العمل، ولكنه تذكر التزامه بتسديد ثمن الطعام وأجرة المبيت، سيحصل على ريالين، يكفيان للمبيت ستة أيام، ليس هناك ما يخسره، المهمة سهلة سينجزها في مدة وجيزة، حتماً سيشعر بالغثيان ويتقيأ، وذلك طبيعي جداً، إذ أن مثل تلك القذارة التي يعتبرها أصحابها أطهر القذارات، تبعث روائحها وشكلها على خروج المعدة والأمعاء من جوفه وفي ذلك فقط تكمن صعوبتها. ولكن عولق استطاع أن يصمد وينجز العمل في مدة قصيرة، ثم عاد إلى السمسرة بعد أن اغتسل وفرك نفسه بالصابون الحجري ليزيل آثار المطهار عن جسده.

وفطن إلى سهولة العيش في صنعاء، فالناس يتأففون من تنظيف المطاهير، ويحتقرون معظم المهن والحرف اليدوية، مما يعني أن هناك أعمالاً لا يشغلها إلا عدد محدود جداً من اليهود والمهمشين المسلمين. أصبح يقتعد صباح كل يوم على إحدى جوانب شارع حارة باب البلقة، وينتظر حتى يأتي أحدهم، ليأخذه إلى المدينة، ليقوم بتنظيف أحد المطاهير، ثم يقبض ريالين، ويعود سريعاً وقت الظهيرة، وهكذا نعم بدخل يومي لا يحلم به أسطى البناء. ولكنه ظل متكتماً خائفاً من انكشـــــــــــــــــــــــــــــــاف

سر مهنته المقززة، عندئذٍ سيطرده النزلاء من السمسرة.

في المساء يستضيء بفانوس جلبه معه من عدن، موضعه هو الوحيد الذي يحلق فوقه السكون والضوء، نظافته وأناقته وعاداته الغريبة جلبت له كراهية النزلاء، بدا في نظرهم شاذ الطباع والحركات، لأنه يقرأ في كتب مستطيلة مكتوبة بلغة غير اللغة العربية، ويكتب أحياناً على ورق خشن

يومياته التي صار يدون أحداثها المميزة، ويدلك يديه ووجهه بمسحوق غريب ناعم، وحتى ذلك الوقت كانت الخشونة والغطرسة والقذارة جزءاً من سمات الأقوياء، على خلاف اللطف ورقة الكلام والحياء، والتي تعتبر من علامات النساء والمخنثين من الرجال. وكانوا يعبرون عن فحولتهم باختلاس النظر إلى مؤخرة وثديي صاحبة السمسرة، ويعتقدون أن النزيل الأسمر لا يكترث بتلك الأعضاء المغرية للمرأة، وهذا ما أكد لهم تخنثه وشذوذه.

ولاحظت زهرة قدرة النزيل الأسمر على التحكم بعواطفه وتصرفاته، وتأثرت بدقته وانضباطه، وعدم تكلفه في التعامل معها ومع الآخرين. بالمختصر، هو إنسان غريب في السمسرة، ولذلك كانت تخشى أن تسقط رهينة الإعجاب به، بعد أن صارت لا تؤمن بوجود رجل حقيقي، يمكن أن تثق به، فما حصل لها مع سالم غرس في نفسها الرهبة من كافة الرجال في صنعاء، أما هذا النزيل الغريب، فإنه من عدن، المدينة التي يقال إن الحياة فيها مزدهرة ومتطورة، في وجهه إيحاء قوي بالثقة، والقدرة على تحقيق الأهداف، وفي عينيه حين ينظر إليها ألق رغبة يحاول جاهداً أن يحجبه، وقد استطاعت أن تضبط إحدى نظراته الغريبة على حين غرة، نظرة هادئة حالمة تختلف عن نظرات النزلاء الشبقة، وتقع دائماً في قرار عينيها. فاندفعت إلى الشك في أن تكون قواه العاطفية والجنسية في وضع سليم، واستمر ارتيابها كائناً، حتى واتتها الصدفة ذات ظهيرة، لتمر من جوار حمامات السمسرة (المطاهير)، عندما انفتح أحد الأبواب، وتجلى أمامها النزيل الأسمر عارياً كما ولدته أمه، كان يجفف نفسه بمنشفة قطنية باهتة اللون، وما إن انتبه إلى وجودها، حتى ارتد إلى خلف باب المطهار الصدئ، ساتراً وسطه بالمنشفة، كان الأوان قد فات، وليس الحذر سوى ضرباً من ضروب اللياقة والارتباك، لأنها رأت شيئاً مثيراً مثل رقبة نسر، ولم تستطع التظاهر بعدم رؤيته، فقد اعتلت ملامحها مسحة من الحياء والذهول وارتبكت، وعادت للتو إلى منزلها تنتابها القشعريرة، شعرت

حقاً بأنها محرومة ووحيدة. والتهبت أعضاؤها الحميمة مثل جرح مفتوح وقع عليه مسحوق الفلفل الحار، وسالت دموعها من عينيها وجعلت تتلوى كأفعى تتخلص من جلدها القديم..

وبعد ذلك اليوم، بدأت بالاهتمام الجدِّي به، شد انتباهها، أنه صار ينقدها أجرة المبيت والطعام، وأحياناً ينفحها بقشيشاً، لا بد أن يكون إنساناً ذا شأن ووجاهة، ولعله في أول يوم أتى إلى السمسرة، ادعى الشظف، من أجل أن يمتحن طريقة تعاملها مع النزلاء، أو قد يكون مبعوثاً سرياً من المقام الشريف لمعرفة ما يجري داخل السمسرة، لا شك

أن لديه أموال كثيرة أو أسرار خفية، وربما يكون وارثاً يستمتع بثروة لم يجتهد في جنيها، فيبعثرها هنا وهناك. فكرت زهرة بكل ذلك، وندمت لأنها تصرفت معه بوقاحة، ولم تكسر قاعدتها الأثيرة

"الدفع المسبق من أجل المبيت والطعام"، لقد أجبرتها خسة بعض النزلاء ومماطلتهم، على التشدد في تطبيق القاعدة، وراح ضحية ذلك مساكين باتوا في العراء وتعرضوا للصقيع في أيام الشتاء، وأصيبوا بأمراض وعلل في عظامهم.

ورغبت بشدة أن تخدش حياته المنتظمة، وتثبت أنه مثل غيره من الرجال يحدِّق فيها ويشتهيها. مضى المشهد بطيئاً والنزيل هادئاً، لا يدري كيف يفتك صمته في نفس صاحبة السمسرة. بينما أخذت الأخيرة تقترب منه رويداً رويداً، وراحت تخدمه بنفسها وتتحرك في الدائرة المحيطة بدكته، منتحلة في سبيل إغرائه، أفظع الألاعيب والحركات اللافتة للنظر، تركت أزرار قميصها مفتوحة عمداً، لكي تذهب عيناه إلى فجوة نحرها وقمة أثدائها المكتنزة، ثم افتعلت شقاً مستقيماً فوق ردفها الأيسر المقوس، إلا أنها بدت مثل مطربة تغني بالقرب من ضرير أصم. وظل منهمكاً في قراءة مسرحية "عطيل" لشكسبير، مستعيناً بنظارته العاجية السميكة..ولاحظ النزلاء ما يحدث، رغم ابتعادهم، وتشتتهم في زوايا شتى، ذلك أن عيونهم تشبه عيون القطط البرية، ولهم حاسة في تتبع ألاعيب النساء ومفاتنهن، مثل حاسة الشم عند الكلاب الجائعة، حقدوا على المرأة، لأنها تحوم حول رجل ميت العضو فاقد الرجولة، حسب تقديرهم، إنها تبدو كمن يرتجي الماء من سطح صخرة جامدة، وهم هناك تكاد أعضاؤهم أن تخرق أثوابهم، لفرط انشدادها وتوترها، لكنها لا تعيرهم أي اهتمام، عند ذلك قاموا بدور الرقيب على تحركاتها، ولبسوا قمصان الفقهاء المخروطية، ومسوح الرهبان البيضاء، وتنادوا للدفاع عن العفاف والفضيلة وتعاليم الرب. وباتوا يضايقونه دون سبب واضح، ورغم أنهم يتبدلون، إلا أن النزلاء الجدد لا يختلفون كثيراً عن القدامى، وأحياناً يكونون أكثر تصلباً منهم، وأشد أنواع المكايدة ألماً في نفسه، عندما يرفعون أصواتهم عند الصلاة أو الجدل، لأن ذلك يعيقه عن القراءة والتأمل. وضاق صدره من مكايدة النزلاء، وأحس بعد تركيز شديد بما يعتمل في نفوسهم، وبعد مرور شهر من مجيئه، وقف أمام زهرة، قائلاً بهدوء:

ـ إلي بأغراضي، وانظري هل علي متأخرات كي أسددها.

ـ انتظر من فضلك، حتى يعود مردوخ في المساء.

شعرت بأنها ضعيفة ومسحوقة أمام النزيل الأسمر، ماذا يريد هذا الرجل أن يكون وسط هذا العالم الشهواني، إلهاً، نبياً، شيطاناً. لم يسبق لها أن صُدمت لرغبة أحد غيره بالرحيل. ولا تدري ما هو الشيء الذي يرغمها على عرقلة رحيله.

ـ لِمَ ترحل؟... أنتَ نزيل هادئ، تفي بسداد ما عليك للسمسرة ...لا شك أن لديك أسبابك الخاصة للرحيل، فالنزلاء هنا وأغلبهم من المسلمين، يأتون من الجبال البعيدة، ولا يفقهون شيئاً عن آداب السكنى في المدن.

ـ لأكون صريحاً معك، أنت الجزء الأكبر من مشكلتي، فالنزلاء يضايقونني بسبب اقترابك من دكتي، ويراقبونني أينما ذهبت.

ـ فليرحلوا إذن، إنها سمسرتي، وليس لهم وصاية علي، أو على أحد نزلائي، إنهم أوصياء على أمهاتهم المبرقعات بالحجب والجلابيب السوداء التي أورثها الأتراك بعد رحيلهم.

واستردت زهرة أنفاسها قليلاً، ثم أخذت تدق سطح الدكة بقبضتها وتصرخ في النزلاء:

ـ لن أسمح لكم بالتطفل علي أو مراقبتي.

رأى عولق أمامه امرأة رقيقة تتحول إلى جذوة نار وانكمش النزلاء في أماكنهم، رغم استهانتهم بتهديداتها، وما إن أقبل مردوخ قبل الظهيرة، حتى بعثته إلى المقام الشريف برسالة شديدة اللهجة تشكو فيها النزلاء، ولم تغرب شمس ذلك اليوم حتى سيق المكايدون إلى السجن، وسكنت نفس النزيل الأسمر، ولم يعد يفكر بالمغادرة. فقد ارتهب النزلاء الجدد من شخص صاحبة السمسرة، واتضح لهم ولأهالي قاع اليهود إن لها واسطة كبيرة في المقام الشريف.

وربما اعتقدت بصحة القول الشائع في الأوساط الشعبية بأن أقرب الطرق المؤدية إلى قلب الرجل هي معدته، فأخذت تزود عولق بوجبات إضافية شهية ومتنوعة، وكلما وجدت سبيلاً إلى تبادل الحديث معه، كانت تقحمه في حديث شيق عن كفاحها المرير من أجل عائلتها، وما لاقت من عناء في سبيل إنشاء السمسرة، رأى النزيل الأسمر نفسه منساقاً وراء لسانها اللبق وصوتها الناعم، لم تكن تحمل أفكاراً عميقة وخطيرة مثل أفكاره، بل إن أحاديثها كانت بسيطة، لا تعدو أن تكون تشكيلة من التفاصيل الحية عن واقعها المعاش، لم تعد بحاجة إلى إبراز مفاتنها لإغوائه، لأنه فقد مناعته، ولم يعد قادراً على التحكم بعواطفه، فقد سبرت أعماقه الألفة، وصار ليناً مطواعاً، وبادلها تلك الأحاديث التافهة والمخجلة، واكتشفت فيه ذلك الشريك البسيط الذي حلمت به، وازداد بينهما الود، إلى أن أكلا معاً وشربا خمرة العرقي، وتحدثا كثيراً في مواضيع شتى، حتى بدأت علاقتهما تأخذ منحاً عاطفياً، اكتمل نطاقه وتطور إلى لقاء جسدي، رافقته ألوان متعددة لا تعرفها زهرة من المداعبات والاندفاعات المتبادلة، أحست معه بذلك الرضا الحاد، الذي يعقب أي لقاء مثير، أضحت روحها تزقزق كالشحرور وقت السحر، فارتمت فوق صدره، ممتنة ومعترفة بالجميل الذي أسبغه على جسدها الظامئ، ثم غرزت شفتيها فوق شعيرات صدره الكثة، طابعة قُبلة حارّة، وتنشقت البخار الطافح على سطح جلده المتعرق، وتشبثت بجسده لمدة قصيرة، حتى تراخت مغمضة العينين، كما لو غطت في نوم عميق.

فوجئت بجسدها يهتز مرة أخرى، راغباً متعطشاً، فامتدت أناملها لتحفيز فحولته، ولكنها وجدتها مهيأة للولوج إلى أقصى حد تسمح به أحشاؤها، والتقيا عدة مرات حتى ثملت زهرة وارتوت.

كان ذلك اللقاء الجسدي العنيف، نتيجة متوقعة لتجاهل الحروب المعلنة بين ديانتين لا تعترفان بالعواطف المختلسة واللقاءات المسروقة، ذلك أن اللذة والسعادة الدنيوية للإنسان، لم تكن هدفاً للأنبياء والصالحين، رغم أن هناك من المقربين إلى الله قد نكحوا ما طاب لهم من النساء، وتحايلوا على قانون اللذة، بالإفراط في اللذة المحللة، أما اللذة المحرمة، فقالوا إنها من عمل الشيطان، حتى لو كانت لذة عابرة ووحيدة.

في وقت لاحق، استدعت زهرة عولق إلى غرفة المؤن، وظن الأخير أنها دعوة لإعادة تجربة اللذة، ولكنه فوجئ بها تهمس مشيرة إلى بطنها:

ـ ماذا لو حدث الحمل؟

ـ سنواجه كثيراً من المتاعب، أليس كذلك؟

ـ نعم، إنها خطيئة لن تغفرها الطائفة اليهودية في القاع.

ـ لماذا تفترضين أن يحدث ذلك؟

ـ لأن الأشياء التي نريدها لا تحدث.

ـ أحياناً تحدث.

ـ ينبغي أن نتوقع حدوث الأسوأ.

ـ ماذا علي أن أفعل؟

ـ لا شيء، ننتظر فحسب.

ـ حتى تتضح بشائر الثمرة.

ـ هذه من أقوال الكتب التي تتصفحها.

انتهى اللقاء عند هذا الحد، وسارت الأمور كالعادة، إلا أن أوضاع عولق تطورت للأفضل في السمسرة، أخذ أحياناً يحتل موقع زهرة على الدكة العالية، فيستقبل النزلاء، ويتسلم الأجرة، ويتصرف كالسيد أو الشريك. بيد أنه كان ينتبه إلى حماقته، ويظل يقاوم غرور الارتفاع فوق رؤوس النزلاء، وشعور السلطة الذي يداهمه في معظم الأوقات. ويدفعه ضميره للعودة إلى موقعه السابق كنزيل، فيؤوب إلى دكته، ليقرأ من كتبه أو يكتب على أوراقه الخشنة ما فات من يومياته المثيرة، ولكن زهرة تغضب منه وتدعوه إلى التصرف كالمالك للسمسرة.

وصدق حدسها ، فقد ظهرت دلائل على حملها، فذهبت تواً إلى الحبر عزرا مسجل عقود الزواج، وسألته عن رأي الشريعة اليهودية في الزواج بالمسلم، فتلوث وجهه وأربد حتى صار كالحصيرة السوداء، إذ شعر بأن ابنة الطائفة اليهودية، واقعة في ورطة عشق أحد المسلمين، وخشي من حدوث ما هو أعظم من العشق، وهو الخطيئة، وهذا ما جعل جوابه عنيفاً قاطعاً، ورجعت من عنده خائبة ومستاءة من صلف التشريع اليهودي، ووجدت عولق في غرفة المؤن واجماً وشارد الذهن. أدركت منه أنه هو الآخر، خاب في العثور على ثغرة في الإسلام يمكن من خلالها النفوذ إلى استكمال مراسيم الزواج، لأن جمهور الفقهاء المسلمين اختلفوا حول زواج المسلم باليهودية، ورأى البعض إن من الأسلم الابتعاد عن الزواج المحاط بالظنون والشبهات.

"لقد ارتضى الطرفان المتنافران الارتباط برباط الزوجية تحت راية الله، فما هو مبرر التحريم إذن؟" تساءلت زهرة بحيرة.

كانت غاضبة، وتفكر في وضعها الحرج، وبما سيكون عليه حالها عندما يشاع أمر حملها بين أبناء الطائفة اليهودية.

الموت حرقاً هو جزاء الزانية الذي تقره التوراة، وهناك حد اجتماعي تنفذه الطائفة، وهو القتل سحقاً بالأقدام والأيدي والعصي والنعال. لم يكن النزيل الأسمر أقل قلقاً منها، وهذا جعل لها بعض العزاء، ولكن رغم ذلك، وجدت نفسها يائسة وحزينة، كان الجو الهادئ في غرفة المؤن، مشجعاً على إعادة تجربة اللذة، بدا واضحاً لهما أن إيلام وجلد النفس لم يعد مجدياً في حالتهما. وبلا شعور منها قشعت جلبابها حتى ظهرت أجزاؤها التحتية المبهجة، وقالت بلكنة محلية :

ـ اغرزه فيّ حتى الموت، افعل بي على رغم أنف اليهود والمسلمين.

كان أداؤه معها ضعيفاً هذه المرة، لم تتشظ أجزاءها أو تسقط صريعة في دوامة اللاوعي. لقد انتهيا خائرين ومنهكين دون جدوى، واعترف لها أن عجزه سيكون أبدياً، حتى يخرجا من تلك الورطة. لا بد أن تفعل شيئاً ينقذ ماء وجهها أمام الناس، فقد عاشت حياتها بعد موت أبيها، حُرّة وواثقة بنفسها، وفخورة بشمائلها، واليوم تجدها ذليلة محبطة، توشك أن تفقد إلى جانب حياتها كل شيء جميل من سيرتها.

لم تستسلم لليأس، وإنما أزمعت أن تقوم بزيارة إلى ضريح "الشبزي"، أحد الأحبار الصالحين في مدينة تعز، لكي تتنسم قساوة الغربة بعيداً عن أهلها، وليتسرب إلى روحها العناء، وإلى جسدها وعث السفر، ولتجني جزء من كرامات الرجل الصالح، والأهم من ذلك أن تتوارى عن عيون جميع معارفها..

وأثناء غيابها، خف الإقبال على السمسرة، إلا أن المدد لم ينقطع تماماً، ظل هناك عدد من النزلاء المضطرين للجوء إلى السمسرة في المساء، وقام عولق بنفس مهامها، أخذ يستقبل النزلاء ويبش في وجوههم، ويتسلم أغراضهم، إلا أنه لم يؤثر مثلها في القلوب والوجدان، واستعاض عن ذلك بالتهاون مع المعسرين، والتغاضي عن قاعدة الدفع المسبق للأجرة، وثمن الوجبات، ولم يعد يستطيع التركيز أو الرقابة على دخول وخروج النزلاء، لأنه أصيب بحالة من البله والضياع جراء رحيل زهرة، ترك الأمور تجري بالسمسرة كما تجري في بيوت العبادة، فترى النزلاء يدخلون ويغادرون، والبعض منهم يتجه ليسدد الأجرة، والكثيرون يغضون الطرف، ويمضون دون أن يمنحوا أصحاب السمسرة كلمة شكر، بيد أن عولق ظل يداوم على دفع رواتب الطباخة ومردوخ، ويرسل الوجبات إلى والدة زهرة وابنتها حنا الصغيرة.

وحاصرته مشاعر التيه والقنوط، شعر أنه أضحى سبباً من أسباب زعزعة نظام السمسرة، الحزن وحده لا يكفي أن يكون عقاباً على ما سلف، مسكينة زهرة راحت ضحية فعلته السوداء، أما هو فلم يصب بأي تحول جسدي أو ضرر مادي، أين تكون صاحبة الجسد الممتلئ بالدفء والحب، أتكون قد قطعت مئات الأميال لتفرغ حمولتها، ثم تعود فارغة؟

أراد أن تفعل ذلك لتسلم من وجع القلب وخوف الفضيحة... ويحس بغصة تصعد من صدره إلى حلقومه، ويتذكر آلام السفر، عذابات الليالي الباردة، تقرحات الأقدام، الأمراض المتفشية، صفعات الرياح، حرارة الشمس وهطول الأمطار. لا تستحق زهرة أن تعاني تلك المعاناة، إنه هو الذي يجدر به أن يتألم ويغادر السمسرة، هو الذي استسلم لها ككلب، وكان ينبغي أن يظل متشبثاً بانضباطه، متحكماً بنفسه، حتى آخر لحظة.

تمنى أن يطرد من القاع، لكي يعاني هو الآخر مرارة النأي، فبأي وجه سيقابل زهرة بعد ذلك اليوم، لم يكن يؤمن بالله من قبل، ولا يعترف أن هناك خلف السموات من يجيب أمنيات الناس وتوسلاتهم، لأنه كان قد تغذى على الفكر الغربي الخالي من الأفكار اللاهوتية، ولكن الإجابة على أمنيته تحققت، وذلك على يد الحبر عزوا. إذ أقبل إلى السمسرة في أصيل أحد الأيام، هو وزمرة من وجهاء يهود القاع وأحبارهم، وأشار إليه قائلاً بصوت هادر:

ـ لن نسمح لك أن تحتل مكان ابنتنا زهرة.

ـ نعم، إن هذا ليس مكاني.. اعترف بذلك.

ـ أيها المسلم، إياك أن تمني نفسك بالزواج بها. هل تفهم؟

ـ نعم، أفهم ذلك جيداً.

ـ هيا غادر المكان فوراً، وإلا شكوتك لحامينا ولي أمر المسلمين..

سقط من الدكة المرتفعة، متعجلاً نيل العقاب الذي يستحقه، عندئذ اعترف بوجود الله، إنه هناك في جزء من الفضاء ينظر بصبر إلى ما يدور في الأرض، ولا يحرك ساكناً، ولكنه استجاب لعشمه، وسارع بإنزال عقوبته العادلة عليه، فقد انهال عليه الأحبار بالضرب الشديد ولم يكفوا حتى رأوا الدماء تبتلع وجهه، وبعد ذلك أخذ أغراضه، وغادر السمسرة مترنحاً. لكنه لم يذهب بعيداً..

دخل المدينة، وتاه محطماً مقهوراً في شوارعها وحاراتها، حتى استقر به المقام في سمسرة صغيرة في سوق الملح، وهناك عاد إلى مهنته السابقة في جمع مخلفات المطاهير، ومن ثم عرف كيف يستطيع أن يحافظ على بقائه، ومع مرور الوقت، ترك عاداته القديمة، وأهمل نظافته وانتظامه، ولم يعد يقرأ في كتبه، أو يكتب في أي من أوراقه، وبدت تظهر عليه علامات العته والخبال، حتى تبخرت كل أفكاره العميقة وبات يتحدث دوماً إلى نزلاء سمسرة سوق الملح عن مشكلة مستعصية في الكون، وعندما يسألونه عن حلها يقول:

(إما أن تسلم زهرة أو يتهود عولق).

ويضحكون بشدة، وقد عرفوا أنه يرمي بقوله إلى امرأة يهودية تحمل هذا الاسم، وليس هناك امرأة فاتنة تدفع بناظريها إلى الجنون سوى زهرة بنت حاييم، صاحبة سمسرة قاع اليهود، لا يوجد أحد في مدينة صنعاء لم يسمع بهذه المرأة الفاتنة.

وسرعان ما انتشرت هذه العبارة في صنعاء انتشار العاصفة، وصارت مثلاً دارجاً في كل مكان، ونسج الرواة من الناس حولها حكايات كثيرة، واختلقوا لكل رواية شخصية جديدة، ولكن صاحبها الحقيقي هو عولق النزيل العدني المعتوه، لقد أكد ذلك صاحب سمسرة سوق الملح الذي ظل يفاخر أن صاحب المثل الشهير هو أحد نزلائه، وبفضل ذلك حظيت السمسرة بالشهرة بعض الوقت ، وأقبل عليها النزلاء، وبقي عولق محتفظاً بدكته، رغم أنه لم يعد يستطيع دفع أجرة المبيت وثمن الوجبات..

وساءت حالته كثيراً وفقد قدرته على العمل، وأصبحت تصرفاته غبية وخرقاء، وخلال هذه الفترة عاش عيشة المتسول، يقتات من بقايا طعام النزلاء، وينام على إحدى (الدكاك) الخالية الكثيرة، حيث عادت إلى السمسرة حالة الكساد وتقلص عدد النزلاء بها إلى نصف ما كانت عليه في السابق، لكن صاحب السمسرة كان يرد سبب برود العمل في سمسرته، إلى اليوم الذي أنشئت فيه سمسرة قاع اليهود، وقد رفع عريضة شكوى بهذا الشأن إلى ولي

أمر المسلمين، غير أن العريضة عادت ومكتوب عليها هذا التعليق الساخر:

"قم بتحسين الخدمات في سمسرتك، وإن لم تفعل، فابحث لك عن مهنة أخرى تجيدها".

وكان صاحب السمسرة يعتبر جنون عولق دليلاً قوياً على تأثير زهرة في عقول الناس، بحيث تستغل ذلك في التغرير بالنزلاء واجتذابهم، وجعل يشيع في سوق الملح أن زهرة اليهودية تسحر نزلاءها وأن لديه البرهان على ذلك، وفي أي نوبة من نوبات الهذيان التي تصيب عولق، ينظر إليه، وينفجر ضاحكاً قائلاً بيأس ومرارة وبصوت صاخب يتناسب مع ضخامة جسده:

"يا مسكين، لست ضحية زهرة الوحيدة، إنها تكاد تفقدنا عقولنا، إنها تجتذب النزلاء إليها، ثم

تسحرهم إلى مجانين ولكن يا للأسف لا أحد يدرك ذلك".

ولكن عندما أصيب بخرس تام، ولم يعد يستطع أن ينطق جملته الأثيرة، صار صاحب السمسرة يتبرم من وجوده، ويسأل عن أقاربه ومعارفه، إلا أن جميع الذين سألهم كانوا يجهلون هذا النزيل، حتى لم يعودوا يذكرون جملته الشهيرة، وقد أصبح في حالة رديئة من العَتَه والمرض، مما جعل صاحب السمسرة يضيق به ذرعاً ويقذف به في صباح أحد الأيام إلى الشارع.

(2)

بدت زهرة في عودتها كمريم العذراء، وهي تحمل بين ذراعيها رضيعاً عمره خمسة أشهر، لم تطاوعها نفسها أن تخلّف وراءها مولودها الصغير الجميل، وتعود فارغة، لكنها خلاف العذراء دخلت القاع متنكرة في المساء، دون أن يلاحظ أبناء الطائفة اليهودية شيئاً غريباً، كانت تحلم بالطريقة التي ستقدمه فيها إلى والده، لا بد أن يبتهج ويتحايل على أنظار الناس، وسيقطن معه في منزل صغير، وسوف تتردد خلسة من حين إلى آخر، لتطعمه وترضعه، وتعطي لرجلها بعض الوقت لمعاشرتها.

بحثت زهرة في طول وعرض السمسرة علّها تجد عولق، ولكنه بدا كقطعة ثلج ذابت تحت حرارة الشمس، أمسكت ذراع مردوخ وصرخت به قائلة:

ـ أين ذهب عولق ؟

ـ لقد ضربه الأحبار وطردوه.

ـ هل ترك خبراً أو رسالة.

ـ لا ، لم يترك شيئاً.

"أين ستذهب يا عولق؟".

خاطبت نفسها بصوت حاد، وهي تعض شفتها السفلى بأسنان فكها العلوي بقوة.

ـ ماذا حدث يا أختاه؟

تجاهلت سؤال مردوخ، ومضت من أمامه مباعدة بين خطواتها يكاد الدم يتدفق من خديها المحمرين، وقد بدا لها أن شريكها الأسمر لم يشاطرها همومها الثقيلة كما كان يجب أن يفعل، بل تركها وحدها تعاني نتائج هفوتهما المشتركة، وارتفع صوت عقلها الباطن، لماذا خذلها؟ لماذا ولماذا...

ظلت كثير من الأسئلة بلا إجابات، في حين شعرت بإحباط يستعصى وصفه، ويئست من عودته، وظنت أنه فر بجرمه صوب عدن.

عادت إلى منزلها منكسرة، ونظرت إلى وليدها بتشاؤم، رأت أنه ليس بوسعها أن تحتفظ به، كيف لها أن تبرر وجوده في منزلها، ويبدو مما سمعت من مردوخ إن الحبر عزرا والأحبار الآخرين يشكون بأمر غيابها، وقد اعتدوا على عولق وطردوه بفعل تلك الشكوك، ولا يستبعد أن يهجموا على منزلها في وقت من الأوقات، ستشي بها أمها الهادئة بلسانها الذي لا يعرف الكذب، قررت من ساعتها أن تتخلى عن الطفل..

ومن أجل ذلك، دخلت صنعاء في وضح النهار، وهي ملتفة بستارتها الحمراء، سادلة خماراً على رأسها، وقناعاً على وجهها الكئيب، وبين ذراعيها يقبع طفل الهفوة، واكترت غرفة من عجوز تؤجر الغرف المفروشة للوجهاء بأجر باهظ، وقرب الفجر، انطلقت إلى الجامع الكبير، ولبدت في زاوية مظلمة من الشارع، وهي ترتجف من فرط الحزن والتوتر والخوف، تقمصت دور متسولة،

وأمامها يتربع هندول خشبي من شغل يهود تهامة، وبداخله رضيع يضج باكياً بسبب برد الشتاء، منحها عدد من المصلين، بضع قطع نقدية لم تتبينها أو تأبه لها، فقد كانت جائزة الرجل الذي سيكفل طفلها باهظة الثمن، مدسوسة بجانب الصغير داخل الهندول.

انتظرت حتى خرج معظم المصلين من الجامع، ولم يعد هناك سوى القليل، الذين يتقربون إلى الله بالنوافل، مستغلين رهبة الفجر وهدوءه وروحانيته، في هذه الوهلة تركت وليدها بمكان منظور قرب بوابة الخروج، ثم جعلت تراقب المحسن الكبير الذي سيفوز به، وتمنت من كل قلبها، أن يعيش الطفل في كنف أسرة كريمة مترفة، أخذت عتمة الفجر تنحسر عن الأفق، وحل مكانها فيض داكن من ضياء الصبح.

رأت رجلاً يبدو في الخمسينات من عمره – لم تدرك من أين انبثق - يمر بجانب الهندول، لكنه توقف كأنما أصيب بالرهبة والفزع، والتفت إلى مصدر الصوت مدققاً النظر، لم يجد غير طفلاً

أبيض كالثلج، مطوياً بخِرَق واقية من الصوف والكتان وإلى جانبه كومة من الحلي الذهبية، وقطع معدنية متناثرة من النقود المحلية، تلفت الرجل يميناً ويساراً، علّ أحداً يتلصص عليه أو يشاطره رؤية الطفل والكنز..

ولمح متسولاً أعمى يمد يده في الفراغ، وضع له قطعة نقدية، أخذ الأعمى يتحسسها بأنامله، ويجأر بالدعاء، راودته نفسه في أول المطاف، أن يدع الطفل، ويغادر بما معه من الذهب والنقود، إلا أنه زجر هذا الخاطر اللئيم، وأحب أن يفعل ما يفعله رجل الخير في مثل هذه الحالة، وقد خشي أيضاً أن يكون من وضع الطفل مختبئاً في مكان ما من الشارع، لقد عرف دون أدنى ذكاء أو جهد، إن من وضعه يرجو أن يجد الصغير، عشاً يأوي إليه، ومن أجل ذلك أعطى بسخاء الأثرياء الكرماء، ولا يستبعد أن يغدق المال على من يتبناه فيما بعد.

سرعان ما انتزع الطفل من هندوله، وقطع الزقاق راكضاً نحو منزله، وكأن هناك من يطارده ليسلب منه كنزه الثمين، وركضت الأم وراءه ممسكة بالهندول الفارغ، حتى رأته يندس عمق منزل شعبي صغير في حارة الفليحي، وبدا المأوى مميزاً بحيث لم تجد صعوبة في معرفته، وأدركت من هيئته المتواضعة إن وليدها سيعيش لدى عائلة فقيرة. ثم تركت الهندول عند باب المنزل وعادت أدراجها حزينة.

وفي كل صباح تأتي لتجلس في مواجهة حانوت المزيّن[1] غيلان، رآها الأخير أكثر من مرة، متدثرة بستارة حمراء مثل نساء المدينة، رغم ذلك وجد في طريقة لبسها، وزرقة عينيها، ما يدعوه للإحساس بأنها غريبة. وفي ذلك اليوم الذي وقعت عيناه عليها، وانتبه لوجودها الدائم، تقدمت إليه، كان الحانوت خالياً من الزبائن، وهذا ما شجعها أن تخاطبه هامسة بخجل:

ـ أنا أم الطفل.

أجاب غيلان متصنعاً الدهشة:

ـ أي طفل ؟

ـ أنا من وضع الصغير والذهب، وأعرف عنك الشيء الكثير، فأنت المزيّن غيلان، تعيش وحيداً في منزلك. وقد استأجرت مرضعة هزيلة ..

---

[1] المزين : هو الحلاق من شريحة المزاينة، التي تمارس مهنة الحلاقة المحتقرة في اليمن.

ـ لِمَ فعلتِ ذلك؟

ـ هذا ليس من شأنك، سأمنحك نفقة كبيرة في رأس كل شهر إن أحسنت رعايته، ويظل بحوزتك حتى أستعيده منك في وقت ما.

ـ نعم، اتفقنا.

وذهبت إلى حال سبيلها، وتبعها بنظرة طويلة متمعنة حتى اختفت، لقد عجزت ستارتها المنمنمة عن إخفاء فتنتها، وبالغ خمارها المنسدل من رأسها في إبراز ملاحة عينيها، وهذا ما جعله يفكر بها ملياً بعد ذهابها، إلا أن فرحه الشديد بالمال منعه من الاستمرار في التفكير بها، ورأى أن مصلحته تقتضي احترام خصوصيات هذه المرأة، وعدم السؤال عن أحوالها..

وفي هذه الفترة تحقق حلمه السرمدي في الزواج، استطاع أن يتزوج بنت بائعة الخضار لكي تساعده على تربية الطفل وتنجب له هو الآخر أطفالاً يحملون اسمه ومهنته، وتمكن من إصلاح حانوته من الداخل، وطلا جدرانه الخارجية بطبقة من الجير والنورة البيضاء ، وداومت المرأة المجهولة في إرسال النفقة ، وفي رأس كل شهر كان يأتيه بها فتى أشقر تتدلى (زنانير) على صدغيه، وتمر الشهور والسنوات، وينمو الطفل ويكبر، لقد صار اسمه عبدالمنعم، حظي بتعليم متواضع عند شيوخ المسجد الكبير، واستطاع بالكاد أن يقرأ ويحفظ بعض السور، والآيات الصغيرة من القرآن التي أوصى بها الشيخ.

ومنذ السابعة من عمره، أخذه المزيّن غيلان إلى حانوته، ليدربه على مهنة الزينة، وظلت أمه تأتي إلى حارة الفليحي متنكرة كعادتها، فترى طفلها، وهو يجتث بمقصه الصغير، شعور الشيوخ البيضاء، ويشذِّب شعيرات ذقون وشوارب رجال راشدين، كانت تشفق عليه من العناء الذي يصيبه، حيث كان يعمل في الحانوت من الصباح، حتى تغرب الشمس عن سماء المدينة. وتحاول قدر الإمكان أن تتفادى الالتقاء بالمزيّن غيلان ، وتحذر من الوقوف في مجال نظره، إلا عندما يكون مشغولاً بالثرثرة مع الزبائن، ففي هذه الحالة لا يستطيع التركيز على أي شيء آخر غير الحديث، ويكون أثناء العمل متربعاً عند مدخل الحانوت، يدخن في مشرعته (غليونه)، ويخبرهم عن مناقبه ومواقفه الشجاعة في حارة الفليحي، ينسج أحداثاً غريبة لم يسمع بها أحد، ويكون هو الوحيد الذي يصدِّق ما يقوله، أما الذين لا يعرفونه، فيصدقون هرطقاته وأكاذيبه، حتى يشط بهم إلى أحداث أسطورية، لا يصدقها ذو عقل، وعندها فقط يدركون أنه كاذب، والبعض منهم يتظاهر بالإعجاب به، وبمواقفه لمجرد الاستمتاع بتلك الحكايات الغريبة.

أما في منزله، فكان يبدو رجلاً غريب الأطوار، متقلب المزاج، فما إن تطأ قدماه عتبة باب المنزل عند أوبته، حتى يستبدل بشاشته بتجهم و غلظة، ويصبح كلامه صاعداً من منخريه، لا من فمه، فتطغى أوامره وتوبيخاته على معظم حديثه إلى امرأته أو عبدالمنعم، ويحدث ذلك في الغالب عندما يقترب الشهر من نهايته، ويحل موعد استلام النفقة الشهرية من المرأة المجهولة. وأحياناً تستمر بشاشته ملتصقة به حتى تجتاز معه عتبة باب المنزل إلى الداخل، حينئذ يكون يومه طيباً، وجيبه منتفخاً بالمال، فينادي امرأته بنت بائعة الخضار باسمها "خيزران"الذي لا يعرفه إلا القليل من الناس، لأنها لا تنسب إلا إلى أمها التي ربتها، وعاشت في كنفها حتى تزوجت غيلان، وقد يصل به الانتشاء إلى أن يلاطفها، ويمازحها، وقد يبلغ حداً من الاندفاع والتهور، ليداعبها، أو ينضو ثيابها قطعة قطعة، ثم يضاجعها في أي موضع من ذلك المنزل الوضيع، ولا يكترث إلى وجود الأطفال من حوله.

ولم يكن لها أي قرار فيما يجري، ولا تستطيع أن تتبرم، لاسيما وأنها استساغت تلك المعيشة

الغجرية، وانتهت جميع أحلامها إلى ذلك المأوى الوضيع. ولازال المزيّن غيلان رغم تقدمه في السن، مفتوناً بالنساء، إلا أن قلة ما في يده من المال، وطباعه المقيتة، ووضاعة مسكنه ومركزه الاجتماعي المتدني، كل هذه الأسباب وغيرها تجمعت مع بعضها لتجعل فرص زواجه ضئيلة جداً، ولعل بنت بائعة الخضار – المرأة الوحيدة التي تزوجها - حمدت هذا الفقر، وأضمرت في سرها شكراً للحال البائس الذي يكتنفه، وكان هذا هو أعظم شعور ينتابها في هذا الشأن، حيث لم يكن لديها أي مشاعر محددة تجاه غيلان، ولا يستطيع أحد في صنعاء، أن يدّعي أنه يعرف الإجابة على عدد من التساؤلات، هل تحب بنت بائعة الخضار غيلان، أم تبغضه؟ وهل هي راضية في العيش معه، أم مجبرة على ذلك؟. وهل وهل..

ولكن ما تعرفه هي، هو أنه رجل وعليها أن تحترمه وتقدس رغباته، وقد وضعت عبدالمنعم بمنزلة الرجال رغم صغر سنه، وعلى العكس منها، كان غيلان يبرحه ضرباً لأتفه الأسباب، ولا يسمح له أن يتحدث أو حتى يدافع عن نفسه، ويحدث ذلك عادة، عندما يسوء مزاجه، أو حين يكون في عوز شديد إلى المال، وفي أوقات أخرى يتغير مزاجه على نحو إيجابي، فيعامله بلطف، ويسمح له أن يخرج لكي يلعب وأصدقائه الصغار، في أيام الجمع أو الأعياد. مما جعل حياة عبدالمنعم تقع تحت رحمة مزاج غيلان المتقلب. ومنذ أن أصبح الفتى الصغير يعمل في حانوت الزينة، أصبح جسده المنهك أقل مقاومة للأمراض.

وفي يوم ذهبت الأم لرؤية طفلها في حانوت الزينة، ولكنها فوجئت بباب الحانوت موصداً على غير العادة، فاتجهت إلى منزل المزيّن غيلان، خائفة ومتوجسة شراً، طرقت الباب بيد مرتجفة، ففتحت لها امرأة صغيرة ضئيلة الجسد، ولكنها - رغم شحوبها - تبدو صغيرة السن، كما لو كانت ابنة غيلان، وسرعان ما أذنت لها بالدخول بطيبة غير

متوقعة، بعد أن علمت أنها المرأة المجهولة، أم الطفل التي تزودهم بعشرين ريالا كل شهر..

لاح منزل غيلان صغيراً مظلماً من الداخل كالقبو، والأسقف واطئة تعلو الرؤوس بذراع واحد، قادتها إلى غرفة غير متسعة. قاعتها متربة ومكشوفة، وفي أسفل الجدار نافذة صغيرة مفتوحة، والكُتَن تزحف على الجدران البيضاء بكثافة مخيفة، وبطونها ممتلئة ملساء، والقُمّل تتقافز بنشوة على الحصيرة القصيرة واللحفة الوحيدة الممدودة على الجزء الأعلى من أرضية الغرفة، رأت الأم ابنها في غيبوبة ممتداً في إحدى الزوايا المظلمة، والذباب يتطاير فوق رأسه،

ويحط على أنفه المضرّج بالاحمرار، كان مصاباً بالحمى، بحيث لم يعد يشعر بمن حوله، تلتصق بجبينه خرقة مبللة لتخفيف حرارته، جست راحته اليمنى بقلق، ثم مسّدت صدره ومسحت على رأسه، وباركته بشيء يسير من دعاء طويل لا زالت تحفظه من التلمود.

ارتفع صوت (جمنة) فخارية مليئة بالقهوة المُرَّة، ترسخ تحت جمرات موقد من الطين مركون قرب المدخل، شربت الضيفة قهوتها، ولم تستطع الاعتذار، لأنها كانت بحاجة إلى تبرير جلوسها، والانشغال بأي شيء قد يساعدها على التفكير في وضع فتاها البائس، وخصوصاً أن مضيفتها ظلت صامتة، ومتشاغلة عنها، بتنويم طفلين صغيرين في الجانب الآخر من الغرفة. أخذت الضيفة تهرش وركيها، مما دفعها للتخلي عن ستارتها، كانت تحس بقرصات موجعة، وبحركة فوق جلدها، وفرض عليها الحر الشديد داخل الغرفة، أن تتخفف من الخمار الذي يستر رأسها وعنقها، فانسكبت ضفائر شعرها كسنابل الشعير على طول متنها، وافترشت أرضية الغرفة، دخل المزيّن غيلان فجأة، ورأى من خلال ضوء النافذة الصغيرة، المرأة التي كانت تزور حانوته من قبل، عرفها ببساطة، لأنها بالقرب من طفلها المحموم، ارتعشت امرأته بنت بائعة الخضار، وأخذت طفليها، وانسحبت إلى مكان ما في المنزل، التمعت عينا غيلان، وهو يحدق في ضيفته طويلاً، ثم ازدرد

اللعاب المتدفق في فمه، واقترب قائلاً في سبيل الترحيب:

ـ أهلاً بك، الدار دارك يا أم عبدالمنعم.

نظرت إليه نصف نظرة، وردت طرفها إلى طفلها المريض، وقالت بغضب:

ـ إنك تعيش في قبو تأنف أن تسكنه الفئران، وهنا سيموت الولد حتماً.

ـ ما رأيك لو تأتين للعيش معنا.

ـ ماذا تقصد يا عم غيلان؟

ـ لا زلت صغيراً، لا تغرك الشعيرات البيض في رأسي، وذقني، ستكونين محظوظة معي، أنت يهودية، لا يهم .. يبدو ذلك واضحاً من رسول النفقة.

ـ عيب هذا الكلام، امرأتك في الخارج.

ـ أي امرأة تقصدين، إنها نعجة قبيحة، وأنتِ مهرة عربية أصيلة، سأطلقها على الفور، نعم، سأفعل ذلك. من أجلك...

ـ هل فقدت عقلك؟

جثا غيلان على ركبتيه، وأمسك راحتيها، وطفق يقول بصوت مكسور يستدر الشفقة :

ـ وافقي أرجوك، لا شك أنك غير متزوجة، وافقي، ليس من أجلي، فأنا لا أستحق ضفيرة من رأسك، بل من أجل عبدالمنعم.

ـ اسمع، سأمنحك ما تشاء من المال، وسأعود به إلى المنزل لأمرضه واعتني به. وهذا كل شيء...

انتفض كالجاموس البرّي، بعد تلك الاستكانة التي مثَّلها، وانتصب أمامها وهو يصرخ:

ـ أيتها القحبة، سأفضحك على الملأ.. (وعلا صوته)

"يا مسلمين، تعالوا إلى هنا، اشهدوا...."

انقضّت عليه بشدة، وأغلقت براحتها فمه هامسة بحدة:

ـ اسكت أيها البغل، أعطني مهلة للتفكير في طلبك.

ـ لا زلت أجهل من تكونين، فإياك والكذب، لن تغادري حتى أعرف من أنتِ.

ـ أنا زهرة ابنة الحاخام حاييم من قاع اليهود.

ـ صيتك ذائع، آه ما أغباني!!، ولكني محظوظ هذا اليوم، سأعطيك مهلة أسبوع واحد للتفكير، قبل أن تشهري إسلامك، وتأتي إلي لكي نكتب عقد القران في دار القضاء.

وخرجت فارة من ذلك المكان المظلم، غير مصدقة أنها نجت من الفضيحة المحققة، ومع ذلك شعرت أنها وقعت مرة أخرى فريسة للخيارات الصعبة.

(3)

هلَّ يوم جديد على أزقة حارة الفليحي، أشرقت الشمس بكآبة، عززتها رتابة الحركة بين الأزقة الكابية اللون، إلا أن الوضع تغير بعد مدة وجيزة، وصارت الأزقة تغص بالباعة المتجولين، وأصحاب الحوانيت والسابلة.

وبعد أن يقُمْ الباعة بتهوية حوانيتهم، يكونوا على أتم الاستعداد لاحتساء قهوة البن بالحليب قبل أي عمل يقومون به. وعادة ما يشربونها، على شرف مولود جديد، أو ختان طفل، أو عرس، أو خبر سار، وعند دعوة من هذه الدعوات، يجتمعون تباعاً إلى مقهاية "مدهش" ويتربعون على مقاعد حجرية، مصقولة، ويأخذون قهوتهم من يد صبي القهوة مسعود ، الذي يتقافز بنشاط فراشة، ليعطي انطباعاً إيجابياً عن سرعة استجابته للطلبات المقدمة من الزبائن، وعندما يفصح أحد الباعة أو التجار، عن دعوة أهل السوق للقهوة على حسابه، يصرخ مسعود مرتجزاً بعبارات محلية مسجوعة، معلناً الدعوة، كأن يقول:

"أينك يا فلوس، أينك يا كؤوس، الدعوة اليوم محسوبة على شرف ختان محمد ولد غالب بائع الغسوس".

وسرعان ما تستقر الكؤوس بأيديهم، دون أي تمييز أو محاباة، ثم يبتدئ صاحب الدعوة بالحديث، وهم يرهصون إليه، يشع في عيونهم الامتنان والارتياح، يكون له الحق في سرد أخبار عن ماضيه الغابر، أو الإفصاح عن حاضره، أو التكهن بمستقبله. ليس لأحد أن يقاطعه، أو ينشغل عنه بالثرثرة مع جاره، وإلا اعتبر ذلك خروجاً عن اللياقة، وخرقاً لأعراف السوق. أما المدة التي يدوم فيها اللقاء، فإنها تبقى مفتوحة، حتى تفرغ الكؤوس، وبعد ذلك يصير من اللائق التوقف عن الحديث، مهما كان طويلاً، أو شيقاً، ليذهب كل واحد منهم إلى حانوته.

في ذلك اليوم، أتى المزيّن غيلان مبكراً على غير عادته، وأفصح عن عزمه دعوة التجار والباعة لشرب القهوة على حسابه، وفوجئ أهل السوق بدعوته، لأنها دعوة يتيمة، لم يسبق لهم أن فازوا بمثلها قط، ولا حتى عندما زفت إليه بنت بائعة الخضار قبل عدة أعوام، ولم يفعل حين رزق منها ببنت وولد. ولذلك تكهنوا أن مضمونها سيكون خطيراً.

لقد استجاب لها فضلاً عن الزمرة المألوفة، تجار لهم وزن ومهابة في أسواق صنعاء، تجار لا وقت لديهم يضيعونه على مثل هذه الدعوات، ومن هؤلاء تاجر البن الشهير "رجب الصغير" وتاجر الذهب اليهودي "حليم وهب"، وتاجر بنادق الموزر "سِيدي

محمد البليلي"، وأخيراً "العزيزي" تاجر الحبوب، أتوا ليستمعوا إلى حديثه، لأنهم يدركون سلفاً شدة شطحاته، وإدعاءاته، وآخرون راق لهم أن ينتزعوا منه، تلك الكؤوس من القهوة، التي لم يسبق أن دعاهم إلى شربها من قبل ، فهو أبخل من سماء صنعاء في فصل الشتاء، أما الأكثر، فقد أتوا محكومين بعادة الانضباط التام في المجيء إلى المقهاية كل صباح. وقبل أن تستقر الكؤوس بأيديهم، راح مسعود يصيح بشدة: " أمطري يا سماء، وانقذي صنعاء من شرور الظمأ ، واللي ما يلبي هذه الدعوة يصيبه عماء، اشربوا القهوة اليوم على حساب العم غيلان لأن عنده نبأ ".

استهل المزيّن غيلان حديثه في حرقة، بحادث صغير وقع عند مدخل الجامع الكبير، ومضى يستعيد ذلك الماضي ويتوخى الدقة والحذر، في استرجاع كل شاردة وواردة علقت في ذاكرته، وحرص

هذه المرة أن يكون حديثه غير مختلط بأي شطحة من شطحاته وأكاذيبه، إلا أن الباعة الذين اعتادوا على سماعه لا يتذكرون أنه في يوم من الأيام قد نطق حقاً، ولكنه استمات في الدفاع عن هذه الحكاية، حتى اضطر أخيراً أن يتوقف، حيث جف معينه، وفرغت كؤوس القهوة، ولم يعد لديه أي شيء يقوله، لأن الأحاديث الحقيقية عادة ما تكون قصيرة. تطلع إلى وجوههم ليرى أي علامة تكتنز في طياتها، وحاول أن يستبقيهم ولكنهم أخذوا يتسللون إلى حوانيتهم تباعاً، كان يود أن يشق صدورهم ويختلس النظر إلى قلوبهم، وتمنى لو يستطيع التلصص على أفكارهم ووساوسهم. أخذ المزيّن غيلان يردد على مسمع مسعود: "نعم، عبدالمنعم، ليس ابني، إنه ابن القحبة زهرة اليهودية، صاحبة سمسرة القاع، ابن من يكون!! لا أدري".

وعندما أوجع أذني صبي المقهاية، أخذ الأخير بيده ونفاه إلى الشارع، عند ذلك انطلق غيلان يصرخ في الأزقة والأحياء، ويستوقف المارة ومن يقابله من النساء والأطفال، ويردد:

"عبدالمنعم، ليس ابني، إنه (زنوة) إنه ابن قحبة القاع زهرة".

وظل الأطفال يلاحقونه، مرددين عباراته الخبيثة، حتى انتبه أهالي صنعاء إلى خطورة حالته، وتبين للكثيرين منهم أن تصرفاته تنم عن جنونه، والبعض من (الصنعانيين) أكدوا أنه ممسوس، وهذا ما دفع معظم الأهالي إلى زجر أطفالهم، وتحذيرهم من الاقتراب، ناحية المزيّن غيلان.

يوم ذاك خرج عبدالمنعم من المأوى الذي يقطنه، متجهاً ناحية حانوت الزينة القريب، أراد أن يثبت لأبيه غيلان، إنه حريص على العمل بعد تعافيه من الحمى، رأى في ذلك الوقت من الظهيرة الحانوت مغلقاً، وأصابه العجب، وفكر، أين بوسع أبيه غيلان

أن يذهب. استند على عتبة حجرية، متحاشياً أشعة الشمس اللاذعة، ومن أقصى الزقاق أقبل زبونه الدائم غالب بائع الغسوس، وما إن رآه حتى هرول ناحيته، واجتذبه من معصمه بقسوة، وملامحه تكشف عن حزن دفين، سار به طويلاً حتى تجاوزا الحارة، كان وجه غالب بالغ الاحتقان والتأثر، وعند تقاطع الطريق المؤدي إلى باب البلقة، انفجر كبُركان مكبوت قائلاً:

ـ اذهب حالاً إلى قاع اليهود عبر هذا الباب، ثم ابحث عن "زهرة" اليهودية، فإن كانت أمك كما يزعم غيلان، فإنها ستأويك وتهتم بك.

همهم عبدالمنعم قائلاً:

ـ زهرة؟

ـ نعم، لقد فضحك غيلان، ونفى نسبك، إلا أن الناس يعرفونه كاذباً ومبالغاً، هيا، اذهب، قبل أن يتبول فوقك أهل السوق.

ودفعه غالب من ظهره، وجعل يطارده في الزقاق، ويلطشه في رفق بغصن شجرة مشمش كان في يده، حتى أخرجه من باب البلقة المطل على القاع. وغلب التأثر على بائع الغسوس، فأجهش وهو يودعه قائلاً:

ـ اعتنِ بنفسك يا بني، ولا تضطر للعودة إلى المدينة مهما كان الأمر، وسأضطر أن أسلم رأسي إلى مزيّن حارة الطواشي..

لم يكن عبدالمنعم في ذلك الحين مدركاً حجم مأساته، وليس لديه أي فكرة عما يعنيه انتفاء نسبه، ولم تتخط قدماه أسوار مدينة صنعاء من قبل. بيد أنه استشعر من قول بائع الغسوس، أنه أضحى حراً

طليقاً، ولا يجب أن يعود إلى ذلك الرجل، صار يتحرك تلقائياً إلى الأمام، تقوده قدماه إلى حيث لا يدري.

رأى السماء أكثر زرقة، يتلاعب بخصلاته هواء بارد، ويدغدغ شعيرات أنفه المتهيجة، وبعد مدة من الوقت، بلغ منازل الطائفة اليهودية، بدا منظره غريباً، ووجهه كالحاً، وليس لديه هدف واضح يسعى إليه، جعل يحدّق بمن حوله من المارة في شارع واسع، نشط الحركة وثمة حمير وبغال تعبر فارغة أو محملة بالبضائع، تسمَّر عند ناصية الشارع، وعاد إلى التحديق في وجوه رجال، داخل حوانيت صغيرة يمارسون حرفاً غريبة، لا يمارسها سكان المدينة، إسكافية يصنعون النعال، ويصلحون التالف منها، وحدادون يضربون الحديد الساخن بمطارق ضخمة، وجزارون، وفحامون، ودباغو الجلود، وقشامون يبيعون الفجل والكراث، والبصل، وحرفيون آخرون يمتهنون حرفاً لا يعرفها. ورأى بائعات لهن خدود تفاحية يبعن البخور وأنواع التوابل والعطور، وأخريات ينتشرن هنا وهناك، بغرض الشراء أو الفرجة. تأمل بشيء من العجب تلك الذوائب المضفورة من الشعر، المتدلية على عوارض الحرفيين وصبيانهم.

مر بجواره رجلان ليس لهما ذوائب، محدثين ضجة من لهجة ذمارية مفخمة، ومن مآزرهما الغليظة، وتركيبة عمامتيهما، ونعالهما المخصوفة بالجلد المتيبس، صارت لهما قدرة سحرية على جذب انتباه

المارة، كان واحداً منهما يقول إنه باع عجلاً، من أجل أن يحظى بزيارة صنعاء والعمل بها، والمبيت في سمسرة زهرة اليهودية، والآخر يوافقه بهزة قوية من رأسه، وينسج حكاية مماثلة.. ثم استويا يتحدثان بلا تحفظ عن جسد صاحبة السمسرة، لحق عبدالمنعم بالرجلين، إذ وقع في أذنيه اسم زهرة وقعاً عجيباً.

أخيراً، وبعد عدة انعطافات، وصل معهما إلى باحة مبنى أفقي طويل مستطيل الشكل، وهناك دخل الذماريان، وهما يتلفتان هنا وهناك، كأنما دلفا إلى الجنة، واستقبلهما رضوان، وشعرا بالأهمية والغرور حين رحبت بهما زهرة، بوجه باسم بشوش، وتجاذبت معهما أطراف الحديث قليلاً، ثم ما لبثا بعد ذلك أن أودعا لديها الأغراض التي بحوزتهما، ونفحاها النقود.

وقف الفتى بعيداً عنهما في الفناء يشاهد ما يجري، شغل نفسه بالتلصص على حركة الرجال الذين يتقاطرون على المكان، لم تكن لديه أي فكرة عن مهمة ذلك البناء الطويل، ولكنه استبعد فكرة أن يكون المبنى جامعاً، يرتادونه للصلاة والعبادة، إذ ليس به مئذنة فضلاً على أنه رأى امرأة قرب المدخل تحاور الداخلين. هذا فقط ما استطاع استلهامه من المشهد.

وفي لحظة من اللحظات، أقبلت نحوه فتاة يافعة تكبره بعدة أعوام، أشارت إليه قائلة:

ـ تعال أيها الولد الصغير.

فتبعها إلى داخل السمسرة .

ورأت زهرة طفلها الذي أودعته في صنعاء خوفاً من الفضيحة وعقاب الخطيئة، تقدمت صوبه وجذبته إلى صدرها وهي ترتعش من فرط التأثر، تاركةً أناملها تتوغل في خصلات رأسه، حتى كشفت عن فروته البيضاء، ثم أخذت تتعقب البق وتفقسها بأظافرها.

قالت بصوت حنون:

ـ ستبقى معنا واسمك هو "عبدو" سنناديك به..

التمعت عيناه، وانفرجت شفتاه كما لو كان يهم بالكلام، ولكنها انطبقت على بعضها.

ـ لن تعمل بعد اليوم في حانوت المزيّن غيلان..

ومضت عيناه دلالة الموافقة، ولم يفه بحرف واحد. فواصلت القول:

ـ لاشك أنه كان يعاملك بقسوة ؟

هز رأسه موافقاً، فمضت تقول بهمس خافت:

ـ سامحني يا بني، الحياة هنا قاسية جداً، والفقهاء والأحبار هم الذين يتحكمون بأفعال الناس وأقوالهم ونواياهم، ويجبرونهم على الإمعان في التنكر لأدوارهم الحقيقية في الحياة.

وخوفاً من أن يلاحظ أحد ضعفها، اختارت المضي في المكابرة، وسرعان ما أزالت آثار دموعها، ونادت الفتاة قائلة:

ـ "حنا"، اختبري الفتى ليساعدك في خدمة النزلاء.

فحصت الفتاة ملامحه، كأنما تختبر صلاحية شكله، ثم أخذت بيده إلى زاوية قريبة، وقالت له بصوت آمر، مفعم بالحكمة:

ـ ابتسم.

حدّق في وجهها ببلادة، كأنه لم يفهم.

ـ افرد شفتيك، مثلي، هكذا.

قالت ذلك وابتسمت، حاول عبدالمنعم أن يقلدها متخذاً في سبيل ذلك كل طاقته.

ـ هذه تكشيرة، ولكنك غداً ستفعل.

ثم جذبته إلى إحدى (الدكاك) الخالية، ورتّبت له دكة كما لو كان نزيلاً من وجهاء القبائل الذين يرون في الاحتفاء المبالغ به أمراً لا غنى عنه.

وفي آخر النهار، انزلق إلى داخل السمسرة، رجل ضخم شاهراً عصا غليظة في يده، وأخذ يصرخ بصوت رج السمسرة رجاً:

ـ يا عبدالمنعم، أين أنت يا ابن القحبة.

كان ذلك هو المزيّن غيلان، وقد أتى من دون سابق إنذار، لكي يعيده إلى المدينة ليعمل في حانوت الزينة، ولم يرتعب عبدالمنعم وحنا فقط، وإنما ارتعب من الرجل كل من في السمسرة، لأن رأسه كان مكشوفاً أشعثاً وصورته نكراء، بينما انسحبت زهرة لتختبئ في غرفة المؤن، خوفاً من سطوة لسانه المقذع، أرادت بذلك أن تستدرجه ليفعل ما يستحق من أجله الشكوى...

و نط الفتى كقط، واندس تحت جلباب حنا المنفوش، وغرز وجهه في فجوة فخذيها، ليكتم شهيقة وزفيره المتعالي، كانت نفحات أنفاسه تدغدغ عضوها الصغير، وتصيبها بحمى تلتهم كل جسدها، وعندما قبضت راحتاه ردفيها الضئيلين بقوة، شعرت بأنها بين يدي رجل كبير، ورغم ما حل بها من اضطراب، لم تستطع أن تتحرك، رضخت للأمر الواقع، لكي تنقذ الفتى من شر العصا السميكة، وجعل غيلان يتحرك في أرجاء السمسرة، شاخصاً ببصره إلى الكوات والمخابئ الصغيرة، نابشاً بيديه اللحف والخطط المصنوعة من صوف الخرفان وجلود الماعز.

مر على كثب من حنا ولمح حركة أو ما يشبه ارتعاشة تظهر من بين ساقيها، فظنها خائفة منه،

ودفعه هذا إلى أن يتطاول على النزلاء ويشتمهم، وأخذت الحمية الذماريين الفتيين، فاندفعا صوب غيلان المجنون، وبأيديهما طفشات خشبية، لكنه رمى العصا وفر من السمسرة في الوقت المناسب، وخرج عبدالمنعم مبلل الأنف، فأسرعت حنا إلى مسح البلل بأطراف جلبابها، وذلك كي لا يشعر النزلاء بأنها لم تكن ترتدي شيئاً تحت الجلباب، لاسيما النزيلان الذماريان، اللذان لا يكفان عن ملاحقة مؤخرة أمها زهرة، بعيونهما الجائعة، علاوة على ذلك، إنها كانت تبدو أمام النزلاء ومواطنيها اليهود، فتاة طيبة وغير مثيرة، وبعيدة عن الأهواء والشبهات، رغم بلوغها الخامسة عشرة من عمرها، كما تتسم بحب الخير الذي يبدو أنها ورثته عن أبيها سالم.

وفي ذلك اليوم، قالت تخاطب عبدالمنعم همساً:

ـ أأعجبك المخبأ؟

حدّق في وجهها ببلادة، ولا زال يمسك بأطراف جلبابها، ويرنو بهلع إلى باب السمسرة.

ولأجل ذلك عهدت إلى نفسها أن تنقذه من الصمت والكبت والخوف من الآخرين، ولو اتخذت في سبيل ذلك أي مجازفة ممكنة.

وفي عيد "سبت السبوت" الشهري، ذهبت به إلى الحاخام يعيش، ووقفا بعيداً عن مقامه الطاهر في الكنيس، لأنها امرأة، والفتى مسلم بطبيعة الحال، ومضت تحدثه بأن الله قد ألقى إليها بالفتى الصغير المسلم، وهي لا ترجو شيئاً في ذلك اليوم المقدس، سوى أن تراه يتكلم، ويتصرف مثل الفتيان الذين في سنه، فإن كان الله رحيماً، كما يقول الكتاب المقدس، فإنه ليس عاجزاً عن تحريره من صفتي الصمت والخوف اللتين يتسم بهما، غضب الحاخام يعيش من لهجتها المتنمرة والمتشككة، واشمئز أكثر من فكرة أن الفتى مسلم، وقال إن الله لا يُلقي إلى المسلمين طرفة عين، بعد أن أخرجوا يهود خيبر من جزيرة العرب، ونفوا يهود المدينة، وحكموا بالموت على يهود بني قريظة. ولذلك رفض في البدء، أن يرشه بالماء المقدس، أو أن يقرأ عليه أحد أدعية موسى التي دعاها عند جبل الرب، وهو يناجيه، ولكن عندما تعرّى، وظهرت آثار العصي عالمة على جسده، عند ذلك، رشّه الحاخام، وقد خف ما بنفسه من التذمر والحنق، فأحياناً، يأسى الناس لرؤية فراشة محترقة في زجاجة مصباح، وقفزت "حنا" بتأثر كضفدعة، وقال الحاخام يعيش مستجمعاً كل طاقته ليكون رقيقاً:

ـ تكلم يا فتى بإذن الرب.

وحركت حنا رأسها مشجعة، وقالت:

ـ نعم، قل شيئاً يا عبدو.

ـ الكبار هم الذين يتكلمون.

تهلل وجه حنا، وسأله الحاخام يعيش:

ـ من قال لك ذلك؟

ـ أبي غيلان.

ـ ومن جرحك...؟

ـ أبي غيلان.

أخيراً باركه الحاخام مباركة صادقة، ودعا له متأثراً بالموقف، كما يدعو لأبناء الطائفة اليهودية، ثم

أذن لهما بالانصراف.

كانت غرفة المؤن في أقصى السمسرة، متسعة ومظلمة، وعندما تنسحب زهرة للمبيت في منزلها، تنسحب حنا وعبدالمنعم إلى غرفة المؤن، للنوم، ويناوب في الخدمة شاب يهودي اسمه موشي، وقد حل مكان مردوخ الذي غادر منذ خمسة أعوام ليعمل في إحدى الكنس.

صار عبدالمنعم في الحادية عشرة من عمره وقتها، وفي تلك الفترة نجحت حنا في جعله يبتسم بصدق، اكتشفت ذلك عفو الصدفة، كانت قد أخفقت من قبل، بعد أن اتخذت جميع الوسائل والأساليب المضحكة إلا أنها هذه المرة، أفلحت في استقطاب ابتسامته،

دفعتها الخلوة في غرفة المؤن، أن تدغدغه وتلاعبه، وتوخز بأناملها إبطيه وعنقه، وتمدها إلى بين فخذيه، كان عضوه مثله، لا زال ذابلاً وصامتاً لا يتحرك، رفعت بصرها إلى وجهه، ورأته على ضوء السراج، يبتسم أحسن ما يكون.

ـ يا لك من شيطان، المفتاح هنا.

قالت ذلك، وجعلت تفرك بأناملها ذلك الذابل الصغير، ولكن دون أي تأثير، كان يبتسم فقط، كأنما يتلذذ.

ـ يا لك من شيطان صغير.

قالت ذلك مرة أخرى، ثم أشارت إلى النتوء الذابل في جسده، واستطردت هامسة:

ـ أخبرني إذا قام .

ثم أطفأت الضوء، وغاصت في النوم، ومنذ ذلك اليوم اكتشفت أن الولد الانطوائي الصامت، يصير في حال أفضل إذا لعبت معه تلك اللعبة، ويصبح سعيداً مبتسماً، وذلك في حد ذاته كان يشعرها برضا الرب عنها.

عاد كل شيء إلى طبيعته، بدأ عبدالمنعم يتكلم، ويحاول أن يصل إلى مرتبة ثرثار، ولكن كل شيء في غير أوانه يصبح صعباً، مشكلة واحدة بقيت لديه، وكادت أن تؤدي إلى أزمة في السمسرة، وهي

عدم قدرته على الاحتفاظ بالأسرار، وعدم إلمامه بما يقال وما لا يقال، وكيف يتصرف حيال كثير من الأشياء التي تصادفه. في يوم، بينما زهرة على دكتها، وحنا تقوم بشيء ما في السمسرة، إذا بعبدالمنعم يدخل، ويتجه إلى حنا، وهو يصيح:

ـ حنا، حنا، ها قد قام.

رفع إزاره، فبان عضوه الصغير منتصباً، فأنشدت وجوه النزلاء الذين سمعوا قوله. وصاحت زهرة في وجهه قائلة:

ـ إياك أن تفعل ذلك مرة أخرى.

انكمش عبدالمنعم كما لو تلقى ضربة في بطنه، وانسحب إلى غرفة المؤن مكسور الخاطر، تتنازعه أفكار عديدة، لم يتوقع إلا أن يسمع كلمات الإطراء والتشجيع، التي اعتاد أن يسمعها من حنا، بينما صرفت الأخيرة نظرها عنه، وقد تلبد وجهها بالسواد، ولم تنبس ببنت شفة، لماذا تجاهلته؟

هل خافت من أمها أم من النزلاء؟ لماذا تخاف؟ تذكر عبدالمنعم عدداً من المشاهد الجنسية التي رآها في قبو المزيّن غيلان، وكانا يعتبراه طفلاً لا يفقه شيئاً. وظنت زهرة حينئذ أن فتاها لم يكتمل نمو عقله بعد، ولا زال في طور الطفولة الأولى، واستدعت حنا إليها، وقالت تخاطبها بغضب:

ـ أحذرك أن ترقدي معه تحت سقف واحد بعد اليوم.

ومضت من أمامها باهتياج.

واستبد الغضب بالنزلاء المسلمين، وكعادتهم عندما يخطئ صغارهم، أرادوا أن يؤدبوا عبدالمنعم، وأن يستأصلوا لسانه من منبته.

ـ إنها ابنتي وهو صغيري.

قالت زهرة ذلك، ولكنهم لم يقتنعوا بهذا القول، أرادوا أن يمارسوا دور أجدادهم الفاتحين، الذين هتكوا أسوار المدن الحصينة في بقاع شتى من العالم، ليجبروا أهاليها على الدخول في دينهم، أو دفع الجزية، أو الحرب.

أخذوا يبرمون الأحكام على الفتى وصاح أحدهم :

ـ ما هو حد كشف العورة عمداً ؟

ـ لم أسمع بحد لهذه الجناية، ربما لم يفعلها أحد من قبل، أو ربما لم يتوقع، الأئمة الأربعة، وجمهور فقهاء أهل السنة أن يحدث ذلك.

وقال ثالث بحماس :

ـ لنجتهد، هيا، لنجتهد، إننا على المذهب ... .

قاطعه رابع:

ـ يُقطع عضوه من خلاف .

ـ يقطع....

دوت صيحة شديدة، ورأوا فأساً مشهوراً في يد زهرة التي مضت تقول:

ـ هيا انقلعوا من السمسرة، قبل أن أقطع أوصالكم، إننا بالكاد سمعنا الفتى يتكلم، حتى تجتهدوا في قطع لسانه".

ـ وعضوه أيضاً، لأنه بات خطيراً.

أجابها أحدهم بسخرية، وضحك أولئك النزلاء بشدة، وخرجوا في طريقهم إلى محكمة المدينة، لكي يقدموا عريضة شكوى بما حدث في السمسرة، ولكن من حسن حظ الفتى الساذج، إن قضاة صنعاء كانوا في عطلة بمناسبة بداية السنة الهجرية الجديدة، وظل الشكاة يتنقلون بقضيتهم هنا وهناك، حتى ذهبت ريحها، ووجدوا أنفسهم قد خسروها، وخسروا معها دكاكهم في سمسرة زهرة ..

وللمرة الثانية يهجم المزيّن غيلان على السمسرة كالمجنون، فأمسكه الذماريان من رقبته وألقياه أرضاً، ثم أوسعاه ضرباً، وقذفاه إلى الشارع، كانت تلك فرصة سانحة لهما ليثبتا لزهرة مدى

إخلاصهما وقوتهما، وبالفعل حصلا على تقديرها الشديد، وأرادت أن تستفيد من قوتهما وشجاعتهما، فأوكلت إليهما حماية أمن السمسرة، مقابل عشرة ريالات في الشهر، وإعفاء من أجرة المبيت والوجبات، ولكي

تكافئهما أكثر ضاعفت رجرجة ردفيها الممتلئين، فكانا يشهقان من فرط الاشتهاء والرغبة.

ورغم ذلك، فقد تضررت من شائعات غيلان التي كان يطلقها في كل مكان من صنعاء، وقاع اليهود، وآلمتها ذكريات الماضي، وأقلقها أن تظل هفوتها حية، تطاردها في كل مكان، بعد أن أغمضت عليها عيون السنوات ومحاها الزمن.

بالكاد نجت من الفضيحة بأعجوبة في ذلك الوقت، والآن، تلوك الألسن تلك الهفوة بشيء من السخرية والاستغراب، حتى صارت حكاية يرويها أهالي صنعاء لأطفالهم قبل أن يخلدوا للنوم، ولكن من حسن حظها، أن اسمها لم يذكر بشكل واضح في تلك الروايات، لأن تصرفات غيلان بدت خارقة للمألوف، فضلاً عن تلفيقاته وأكاذيبه..

ومع ذلك ترك عبقاً غير محبباً في أذهان الناس، ودفع الكثيرين للتساؤل: لماذا اختار غيلان صاحبة السمسرة؟ وهل عبدالمنعم ابنه بالفعل، ولِمَ نفى نسبه؟

وما إن أدركت أن غيلان بات يهددها، ويشكل خطراً فعلياً عليها، بعثت بالشكوى إلى المقام الشريف، ضد مزيّن حارة الفليحي، وزعمت أنه يقذفها بالخطيئة

ويقلق راحتها، وراحة نزلائها، ولم تهدأ روحها حتى قبض عليه العُكفة*، وأودعوه السجن، ثم أثلج صدرها الحكم الذي صدر عليه من محكمة المدينة، حين حكمت عليه بالسجن مدة خمسة أعوام.

وفي ظل هذا الظرف، غادر الذماريان، بعد أن ضاقت بهما أسباب العيش، إذ أنهما فقدا وظيفتهما، وذريعتهما في البقاء، وهي حماية أمن السمسرة، وبعد اعتقال غيلان، اطمأن عبدالمنعم، واستكان في ذلك الجو العابق بأبخرة أجساد النزلاء، وأدخنة الشيش المحلية، وأخذ يساعد حنا في تدفئة السمسرة في الليالي الباردة بإطلاق البخور العدني من المباخر الرصاصية، والمواقد الفخارية، وفي تبديل اللحف والخُطط، بأخرى نظيفة، وفي إزالة الغبار عن (الدكاك) الخالية، ورش الممرات المتربة بالماء، وفي ريّ شجيرات الحبق (المشاقر) في الأصص المتربعة على مشارف فناء السمسرة، كما كان يقوم على خدمة المشاكسين من النزلاء الذين لا تحبهم حنا. ورغم بواعث الاطمئنان التي عبقت بالأجواء، إلا أن ثمة قلق دائم ظل يفترس قلب زهرة، كانت تشعر أن هناك خيوطاً من هفوتها لم تنقطع بعد، أولها وجود عبدالمنعم في السمسرة، وما يبعثه من ريبة وشك، ولكنها مرغمة على التمسك به، يدفعها نحو ذلك عطف الأمومة، والتكفير عن ذنب التخلي عن طفل صغير في المهد. أما ثاني هذه الخيوط، هو المزيّن غيلان، فما دام هذا الرجل حياً، فإن هفوتها ستظل حية في أذهان أهالي صنعاء، وإن أخذت شكل الأقاويل والشائعات، وأما الخيط الثالث، فهو عولق شريك هفوتها، وبرغم أنها لم تعد تهتم بأمره، ولكنها مهما كابرت وتجاهلت وجوده، إلا أنه يظل جزءاً مؤثراً في حياتها، حتى انعكس ذلك على بعض قراراتها في السمسرة، حيث فضلت أن تظل دكته خالية من أي نزيل، وأن تراها على ذلك النحو، لكي لا تنسى ما فعله بها من مكروه، لقد كانت غاضبة دوماً ومجروحة، وتتكبد في أعماقها ألماً خفياً لا يعلم به أحد، ومع ذلك مشت وتيرة العمل بهدوء وانتظام، ولم يحدث شيء ملفت أو مثير خلال تلك الفترة، وفي كل يوم تلمح الدكة الخالية، تتمنى أن ترى نزيلها الأسمر، لمرة واحدة فقط، وذلك من أجل أن تبصق في وجهه،

---

* العكفة: جنود ولي الأمر.

وتمضي من أمامه إلى الأبد.

(4)

تسلل النزيل العدني الأسمر إلى السمسرة دون أن يشعر به أحد، أتى مطروداً من سمسرة سوق الملح، بعد عشرة أعوام من الغياب، وقادته قدماه إلى قاع اليهود، واعتبر بعض الناس ممن يعرفونه، أن وصوله إلى هناك قد حدث بفعل معجزة كبيرة، وإلا لكان متشرداً في أزقة صنعاء، ولفتكت به الأمراض والأوبئة المتفشية في ذلك الوقت، وقال بعضهم، إن ثمة طاقة ذهنية وجسدية ظلت لديه، بحيث استطاع من خلالها عبور باب البلقة باتجاه مأواه القديم، والتعرف على معالم المكان وعلى دكته القديمة الخالية، ولكنهم اتفقوا على أنه دخل القاع مترنحاً وبحالة سيئة، وعندما وقف أمام باب السمسرة، ورأته زهرة لم تستطع أن تتعرف على ملامحه المزرية، وفي تلك اللحظة من الظهيرة، اضطرت إلى استقباله، رغم أن مظهره العام لا يبعث على الركون إلى الاستفادة منه كنزيل. إذ بدا لها كشحاذ رث الثياب أو رجل مخبول معدم العقل، غير أنها اعتادت أن تستقبل مثل هؤلاء النزلاء، وفي يوم ما أهملت استقبال أشخاص متواضعي المظهر، يشبهونه في الرثاثة والضعف، ثم فوجئت حينها أنهم من الوجهاء المرموقين الذين لا يكترثون بمظاهرهم.

لم يكن في وسعها أن تتصور أن ذلك الرجل هو شريك هفوتها، كما لم يكن عند الأخير أي فكرة عمن تكون المرأة التي يقف أمامها، وظل متجمداً أمام دكتها بصمت، متطلعاً إليها ببلاهة غير معقولة، ومن برهة إلى أخرى يرمق المكان بنظرات زائغة عشوائية، ولم يعِ أي معنى لصوتها المفعم بالجدية والتواضع، وأسئلتها المعتادة وهي تخاطبه:

هل أحجز لك دكة للمقيل أو النوم؟

- .....

ـ ماذا تريد أيها الجار المسلم؟... هل أنت أصم؟

- .....

وحينما يئست من إجابته، سلمت موقعها إلى حنا، وألقت إليها مسؤولية التصرف مع ذلك الرجل، لأن موعد أوبتها إلى منزلها قد حان، ويجب أن تغادر السمسرة لكي تتناول وجبة الغداء وأمها شمعة، فأخذت وجبة ذلك اليوم، وخرجت رامقة ذلك النزيل المتصلب قرب الدكة بنظرة ثاقبة أخيرة قبل أن تغادر المكان، في حين عجزت حنا عن استنطاقه، وأسرعت إلى الاعتقاد بأنه أصم وأبكم في نفس الوقت، وفي خطوة مفاجئة اتجه النزيل الغريب إلى الدكة الممنوعة، فارتبكت الفتاة ارتباكاً شديداً، وارتعشت جميع أعضائها من الخوف، ولم تفلح توسلاتها المتكررة في إبعاد الرجل عن مرامه.

ـ أيها الجار المسلم، هل تسمعني؟ بحق جاه نبيك محمد، اختر دكة أخرى غير هذي، فإننا لا نؤجرها أبداً لأي نزيل.

بدا لها إنه لا يسمعها، فطفقت ترفع صوتها، لتصل كلماتها إليه، ولكن دون جدوى، وتجمع النزلاء إثر ذلك، وحاولوا أن يفهموا ما حدث، وعندما أدركوا جلية الأمر، قام أحدهم بمحادثة النزيل المتمرد بلغة الإشارة، بحركات عشوائية لم يفهم النزلاء معناها، واقترح آخر بترك الرجل في حاله، والانتظار لقرار زهرة، إلا أن حنا رغم حبها للخير وعطفها الكبير على المساكين، لا زالت مصرة على إبعاده عن تلك الدكة، لأنها كانت تعرف مدى حرص أمها الشديد على خلوها من النزلاء، وتعشمت ممن حولها أن يعينوها على تنحية النزيل عن تلك الدكة فقط، أرادت أن يجبروه على

التوجه إلى دكة أخرى، ولكن النزلاء جبنوا عن المساس بذلك النزيل البائس، لأنهم لاحظوا جسده الهزيل وعظامه الناتئة وملامحه المغبرة الشاحبة، لذا خافوا من مغبة التورط في موته، ما لبثوا أن انصرفوا إلى دكاكهم تجنباً للحرج.

وخشيت حنا هي الأخرى من فكرة المساس به، وثارت في أعماقها نزعة الخير التي ورثتها عن أبيها سالم، فأسعفت الرجل ببعض الطعام، وأوصت عبدالمنعم بخدمته، وبرغم ذلك ظل متشبثاً بدكته، مستلقياً عليها وفمه مفتوح يطحن ما يؤتى إليه من طعام، كانت وضعيته عند الأكل غير مريحة، وكادت بعض اللقيمات أن تنزلق في قصبته الهوائية، ولكن حنا استغاثت ببعض النزلاء، وفي هذه الحالة استجابوا لها، وأرغموا ذلك النزيل على الجلوس.

وحين أتت زهرة، لاحظت ذلك الخرق السافر لنظام السمسرة، فداهمها الغضب، ووجهت نظرتها القاسية إلى حنا، قائلة:

- ألم أحذرك من تأجير تلك الدكة؟

ارتفعت راحتا حنا بصورة توحي بالاستسلام، وأجابت:

ـ إن ذلك النزيل اغتصبها ، واخترق نظام السمسرة، ويبدو أنه معتوه، انظري إليه، إنه مريض أيضاً ويبدو على موعد مع الموت.

- هل قال شيئاً؟

اكتفت حنا بهز رأسها نافية، في حين انتصبت زهرة أمام النزيل، ورأت عضلات صدره تنقبض بقوة، مع صعود وهبوط أنفاسه المضطربة، كان بؤبؤا عينيه يهتزان بخفة، تتناقض مع انقباضات صدره السريعة، بدا أنه لا يشعر بوجودهم حوله، ولا يشعر بنفسه أو بأي اختراق اقترفه، عند ذلك استحسنت زهرة تصرف حنا، ولكنها كعادة أصحاب المشاريع لم تشأ أن تبدي إعجابها بذلك، لكيلا تتكرر مثل هذه الخروق، واستطردت قائلة بقلق:

ـ إننا في ورطة حقيقية، وإن مات هذا الرجل، سنكون عرضة للارتياب والقيل والقال، وسيؤثر ذلك على سمعة السمسرة.

وما إن استلهمت هذا الخطر المقبل، حتى تيبست شفتاها من الهلع، وأسرعت بطلب أحد الأطباء الشعبيين، الذين يشتهرون بعلاج مثل هذه الحالات المستعصية، ثم قررت من ساعتها مخاطبة عامل القاع، من أجل إخلاء مسؤوليتها من أي مكروه يصيب النزيل. لم تلبث أن كتبت خطاباً رقيقاً، إلى العامل ترجو منه تقديم يد العون إليها في محنتها تلك، وبعد عدة أيام جاء مبعوث صغير من أتباع العامل، ولم يفعل شيئاً ذا شأن، باستثناء التحديق في وجه الرجل، والدوران حول دكته عدة مرات، ثم عاد من حيث أتى. وانتظرت زهرة أياماً أخرى، ولكن لم يأتها أي نبأ، فاضطرت أن ترفع عريضة إلى المقام الشريف، ترجو إخلاء مسؤوليتها من ذلك النزيل المريض، وتأخرت العريضة على غير المعتاد، مما جعلها تقرر الدخول بنفسها إلى صنعاء، لكي تقابل ولي الأمر..

وفي يوم الأربعاء، انطلقت باتجاه المدينة، يحدوها أمل كبير أن تقابل حاميها الطيب، وعندما وصلت إلى المقام الشريف، لم تجد سوى أمين السر يستقبل عرائض الزوار، وسرعان ما عرفت أن ولي الأمر يتنزه منذ عدة أيام في إحدى ضواحي المدينة، وانتظرت زهرة طويلاً وعندما انتابها الملل أودعت عريضتها لدى أمين السر، وانصرفت، وما إن كادت تعبر الفناء حتى سمعت جلبة كبيرة، ثم رأت رجلاً مضرجاً بالدماء، محمولاً فوق أعناق الرجال، وسرعان ما علا الصخب الهائل، وانتشر (العكفة)، وأخذوا يجلون الزوار بأعقاب بنادق (الموزر) الطويلة، فاندفعت زهرة

بعيداً، وهي تبكي من فرط التأثر والخوف، وجمدت في آخر الزقاق المؤدي إلى المقام الشريف، وأخذت تسأل المارة الآتين من حيث الجلبة عما حدث، وأخيراً مر عكفي يمشي على عجل فقفزت إليه، ونفثت صوبه كل نعومتها وأنوثتها، وتوسلت إليه أن يتحفها بما يجري في المقام الشريف، وعندما أوشك أن يصرخ في وجهها، رمقها شزراً، فلانت عضلات وجهه، وتوهجت في عينيه الرغبة في محادثتها، والسير برفقتها أكبر مدة ممكنة، فأخذ يحكي لها ما حدث بإسهاب، وعندما وجدها تهم بعبور زقاق يؤدي إلى باب البلقة، أوصاها أن تكتم هذا الخبر حتى تتم إجراءات تنصيب "ولي العهد" ولياً للأمر.

عادت زهرة إلى سمسرتها مثقلة بالحزن، وفي ظل هذا الظرف السيئ، هان عليها أمر النزيل، وصارت تتذكر ملامح حاميها التي لم تره منذ سنوات طويلة، وتسترجع ما حدث.

تبدأ جذور المأساة منذ عدة أسابيع عندما جاءت إلى ولي الأمر بندقية للصيد، جلبها إليه مهاجر حضرمي من دولة بعيدة تقبع خلف المحيط، وزوده بصندوق كبير ممتلئ بالأعيرة النارية، وفي ضاحية من ضواحي صنعاء، كان ولي الأمر يتنزه ويتدرب على إطلاق النار من سلاحه الجديد، وشهد العكفي المخلص المرافق له أنه أصاب نفسه بالخطأ عندما كان يحشو البندقية..

ومع صعود ولي أمر المسلمين الجديد، ارتفع مبلغ زكاة السمسرة إلى الضعف، وارتفعت حصة (الجزية) * على النفس اليهودية إلى الضعف، ولم يعد أمين السر يستقبل عرائض الناس، وإنما صار على كل ذي شأن أن يذهب بنفسه ليقابل ولي أمر المسلمين الجديد في يوم الأربعاء.

وفي أحد أيام الصيف الدافئة، غمرت أشعة الشمس باحة السمسرة، وأركانها ونوافذها، في وقت مبكر من صباح ساكن بهيج، ثم مرقت بهدوء وصبر حتى صافحت بعض أجساد النزلاء، ومن بين هذه الأجساد، جسد النزيل الصامت. رافق ذلك، دخول زهرة التي تعتلي دكة الاستقبال، وخروج موشي إلى منزله لينام، بعد انقضاء مناوبته الليلية.

بدأت الحركة تدب في السمسرة، وطقطقات أحذية بعض النزلاء تعلو، وهم يقرعون الممرات بخشونة ومثابرة، متجهين صوب أعمالهم. كان ذلك الصباح، مختلفاً عن كل الصباحات التي شهدتها السمسرة، وفي مثل ذلك الوقت، يكون الذهن صافياً، والعقل مشرع الأبواب للأفكار الجديدة، على حين بدت زهرة تراقب دكة النزيل الصامت، محدقة في ذلك الجسد الطويل الملقى كعمود جامد. ثم حولت بصرها عنه بيأس وضجر، مر عامان ونصف وهو على هذا المنوال، يأكل وينام و يشخص للسقف، أو يذرع الممرات جيئة وذهاباً، كأن جسده مسكون بشيطان، وطول هذه المدة لم ينطق بكلمة واحدة.

وقد بعثت عدداً من الخطابات بشأنه إلى عامل القاع، وولي أمر المسلمين الجديد، ولكن لم يحرّك أحدٌ ساكناً، كما لم يظهر لهذا الرجل أي قريب أو بعيد من معارفه، ولا زال حتى تلك اللحظة مجهول النسب والديانة والموطن، ولا تدري لماذا تصطبر على وجود هذا النزيل الغامض، الذي يشكل عبئاً مثقلاً عليها! رغم ذلك فقد سجلت ما عليه من مستحقات للسمسرة، إذ لا زالت تأمل أن يفيق بمعجزة أو يظهر شخص ما من أقاربه، يتكفل بسداد ديونه. ولكن حالته لم تتحسن كما ينبغي، لا زال صامتاً منطوياً على نفسه، ينأى عن طريق النزلاء وعمال السمسرة، وفي مقابل ذلك، زال هزاله،

* الجزية: مبلغ من المال أقره الإسلام على غير المسلمين يُدفع كل سنة.

وهدأت أنفاسه المتذبذبة. وبدا للجميع أن جسده تماثل للشفاء، في حين ظل صمته وبلهه، فضلاً عن ملامحه التي اندثرت عمق لحية كثة شعثاء، وهذا جعل منه بعبعاً يخيف سكان السمسرة و...

قطع أفكارها صوت سقوط النزيل عن دكته، ورأت رأسه يرتطم بأرضية الممر، وندت من فمه صرخة عالية، وهرول النزلاء من كل الزوايا لنجدته، وقد ساورهم الظن بأنها صرخة الموت. وانضمت زهرة وحنا إليهم، ولحق بهم عبدالمنعم من أقصى ركن بالسمسرة، وقفوا جميعاً مندهشين، بحيث انعقدت ألسنتهم لوهلة وجيزة، وهم يسمعون ذلك النزيل الصامت يهنهن ويتأتئ بألم..

كان ينطق بكلمات غير مترابطة، ويتلفت حوله كأنما صحا من كابوس مزعج، مدوا أيديهم إليه ليرفعوه عن الأرضية، فسأل بصوت ركيك:

ـ ماذا حدث لي؟

ـ حمداً لله على سلامتك، لقد سقطت من على دكتك، وحَسبنا أنك كسرت جمجمتك، حمداً لله.

أجابه بذلك أحد النزلاء بطيبة نادرة، وحينها سألته زهرة بفرح:

ـ من أنت أيها الجار؟ أرجوك قل أي شيء تعرفه عن نفسك قبل أن تفقد عقلك ثانية.

فكر النزيل قليلاً بما يجيب، قبل أن تتسع حدقتا عينيه بدهشة ويقول:

ـ ماذا جرى لعقولكم الغافلة؟ ألا تعرفون عولق النزيل العدني؟

أصاب الذهول زهرة، التي أنكرت جميع حواسها إدعاء ذلك النزيل، وحاولت أن تمعن النظر فيه، ولكن غشاوة رقيقة من الدموع طفرت في عينيها، فانسحبت إلى دكتها قبل أن يلاحظ النزلاء مقدار تأثرها، لم تكن محزونة من أجله، بيد أن ظهوره المفاجئ أفقدها توازنها وجعلها تضطرب، حتى أنها لم تجرؤ على أن تبصق في وجهه كما كانت قد أزمعت. وشعرت بمدى ضعفها وترددها في اتخاذ قرار سريع، ولكنها على خلاف ما هو متوقع هدأت وعاد إليها الوئام، وكأن شيئاً مزعجاً لم يظهر، ربما ذلك بسبب اعتيادها على المفاجآت غير السارة والمتاعب، وبدون شعور واضح راحت تراقب الرجل المذهول الذي يتحرك من زاوية إلى أخرى، ويجيل عينيه في أرجاء السمسرة، لم تغب عنها الحيرة البادية على قسماته المحطمة، باتت حواجبه ورموشه تهتز في تضامن حاد مع تفكيره العميق، بدا كأنما يحاول تذكر الصور الباهتة المبثوثة في جزء ما من رأسه، ولما أعياه اليأس، دنا من دكة زهرة قائلاً:

ـ ماذا حدث لي؟ كل شيء غريب عني هُنا، أرى وجوهاً غريبة، كيف تتغير السمسرة بهذه السرعة؟

أجابت عليه بنبرات ذات مغزى:

ـ نعم، أشياء كثيرة حدثت، أين كنت خلال هذه المدة الطويلة؟ أنت نفسك تغيرت، وكبرت، انظر إلى روحك، وانظر إلى تلك الفتاة، إنها ابنتي حنا، وذلك الولد هناك، إنه عبدو، وهذه أنا زهرة، لا زلت بصحة جيدة ولم أنقرض بعد...!

سأل نفسه بعجب :

" ما فعلت حتى تخاطبني صاحبة السمسرة على هذا النحو؟ هل أنا المعتوه أم هي؟."

وارتفعت أنامله حتى لامست شعيرات سوالفه وشاربه، وفزع من كثاثتها وملمسها الخشن، وأمسك جلد معصمه المطاطي المتهدل، فأيقن أنه اندثر لمدة طويلة من الزمن، أو لعله من بقايا أهل الكهف.

ثم صاح بحيرة :

ـ أنا مريض لا شك، أنا معتوه، أنقذوني من نفسي، ماذا حدث لي؟...

سار إلى دكته ممسكاً رأسه بكلتا يديه، وانكب على وجهه، مغمضاً عينيه، ثم أخذ يفتش ملياً عن شيء يتذكره عن نفسه، ولكنه لم يجد شيئاً غير اسمه وصفته في السمسرة كنزيل. وفي وقت من النهار،

سلّم إليه موشي سجلاً يضم ديونه التي يجب أن يدفعها إلى خزينة السمسرة، فهاله المبلغ الكبير، ثلاثمائة ريال ماريا تريزا، منها مائتا ريال مقابل وجبات صغيرة، والمائة الأخرى مقابل مستحقات الأطباء والأدوية، أما أجرة المبيت، فلم تدخل في الحساب، على اعتبار أن دكته كان يجب أن تكون خالية من أي نزيل، غير أن ما أدهشه أكثر هو أن أحداً لم يعد يكترث لأمره.

مرت الأيام بطيئة، وروتين العمل في السمسرة لم يتغير، وجوه جديدة تظهر، ووجوه أخرى تختفي، ومع مرور الوقت يشعر بمقدار عظيم من الجفاء والبغض، يعشعش في وجوه النزلاء وأصحاب السمسرة، لقد أصيب بحالة من المرض والضياع من قبل، هكذا بدا الأمر، ومازال الآن عاجزاً عن الوصول إلى أي قرار ينتشله من وضعه الحرج ، لاحظ النزلاء يتأففون ويسدّون أنوفهم كلما مر من جوارهم، أدرك أن شكله مزرٍ ورائحته نتنة، أخذ يتأمل وضعه الجديد، وحين ذلك أحس أن خلو عقله قد أعفاه من كثير من الهموم والالتزامات، ولا زالت زهرة تنتظر منه أن يسدد ديونه، وفي وقته الراهن لا يحضر في ذهنه أي مكان آخر يأوي إليه، وجد نفسه مرغماً على تقبل ذلك الجفاء والصمت الذي يقابله به أصحاب السمسرة، فاصطنع لنفسه عملاً، ولم يعقد في ذلك اتفاقاً، كما لم يعترض طريقه أحد.

صار ينظف (الدكاك) ويفرشها، بعد أن يغادرها النزلاء، وكان شعاره هو "العمل من أجل المأوى والطعام"..

واتسمت علاقته وعبدالمنعم بقدر كبير من الأهمية، فقد تعلق بالفتى، لأنه لم يكن يحتقره أو يتأفف منه، وكان لا بد له أن يحطم سياج الجفاء المضروب حوله من النزلاء وعمال السمسرة، ووجد أن أضعف نقاطه عند عبدالمنعم. فبات يترصده ويقتفى آثار خطوه، حتى تكونت بينهما الثقة والمودة.

وراحت زهرة تراقب بقلق بالغ ما يدور بينهما من أحاديث، وفي كل مساء عندما يتسلم موشي مقاليد العمل في السمسرة يكون عولق متربثاً للفتى في الفناء الخارجي للسمسرة، وهناك يتحدثان في باحة معتمة، مقتعدين على أحجار ملساء أعدت خصيصاً للنزلاء الذين يرغبون في السمر، وتبادل الأحاديث، واحتساء القهوة على الهواء الطلق في هدأة الليل. ومن فينة إلى أخرى تأتيهم أصوات مطايا النزلاء من ناحية الزريبة المكشوفة، وتعبق في الجو روائح الروث، ولكنهم لا يكترثون.

أصبحت أحاديثهم الليلية، تشبه أحاديث الأسمار الشعبية، كالعادة الشيوخ مدراء السمر يروون للسمّار، ما يحفظون من حواديت الجدَّات والطرف التي تجعل الحاضرين يغرقون في الضحك والانبساط. وفي كل يوم أثناء العمل، يتمنى عبد المنعم أن تنطوي الساعات سريعاً ليحل الليل ، وفي بعض الأمسيات تبقى لهما أحاديث خاصة لا يشاركهما فيها أي نزيل، ولا يمر يوم من دون مشاهد

تستدعي التأمل والحديث حولها بعض الوقت، وفي أعظم الأحوال يتحدثان عن حصيلة ذلك اليوم من المتاعب ومشاكسات النزلاء ومطالبهم ومواقفهم الظريفة واللافتة للنظر.

ويخلو جو السمر من علامات الفوضى، والنوايا السيئة أو الأخطار، ولكن زهرة ظلت تتساءل بارتياب:

" أيكون عولق قد عرف شيئاً بشأن عبدو، ومن ثم يخطط لفعل شيء ما؟ ".

وظلت دائمة التوجس والقلق، ولم يكن من صالح العمل تقويض تلك الجلسة المسائية، وكل ما استطاعت فعله، هو استئجار حارس ليلي، طلبت منه ألا يسمح لفتاها باجتياز الفناء الخارجي للسمسرة، لأي سبب من الأسباب، وفي النهار أخذت تتابع بنفسها تحركات الفتى، ثم لاحظت أن عولق بدأ يتغير، ويوشك أن يكون طبيعياً في تصرفاته وتعامله مع النزلاء، ورغم هذا التطور المفاجئ في حياته، إلا أن النزيل الأسمر الذي تعرفه زهرة، لا زال قابعاً وسط جسد مستعار غريب، وخطر لها أن تتأكد أكثر من شريك هفوتها، بعد أن تمكنت من تمييز هدوءه وصبره وصفاته القديمة..

فبعثت به إلى حمام بخار في المدينة، ثم عهدت إلى مزيّن متجول ليشذب شعر رأسه ولحيته، وأوصت إحدى الغاسلات بتنظيف ملابسه. فتحول بين عشية وضحاها، إلى رجل حسن المظهر طيب الرائحة، واختفى ذلك الشخص المستعار، وظهرت صورة عولق، شريك هفوتها، متجسدة أمامها كما عرفتها من قبل، بالرغم من بروز التجاعيد والأخاديد على بشرة وجهه الأسمر، وما إن عرف مصدر تمويل تلك الخدمات التي قدمت إليه دون مقابل، حتى شعر بالحرج الشديد، ووقف أمام دكة زهرة قائلاً:

ـ أرجو يا جارتي أن تكفي عن تقديم خدمات إضافية لي، فأنا مدين لك بمبلغ كبير، ولا زلت أعمل في السمسرة من أجل سداد ديوني، وما تفعليه لي يشعرني أكثر بالتعاسة والخزي.

أجابت زهرة بصوت جاد:

ـ هل ترغب بالرحيل عن السمسرة ؟

ـ نعم، لقد سببت لك المتاعب، ولا أجد سبباً يدعوني للبقاء.

تفكرت قليلاً، ثم قالت:

ـ اسمع يا عولق، إنني مسئولة هنا عن تصرفات النزلاء، وعمال السمسرة، ويبدو لي أن علاقتك بالفتى عبدو غريبة.

رد عولق – لأول مرة ـ بغضب:

ـ ماذا تقصدين بذلك؟ صحيح إنني أبدو في سن والده، ولكن متى كان للصداقة سناً معلوماً بين الناس، إن وداعته وسذاجته تجذبني إليه، وهذا كل شيء يا جارتي زهرة.

قالت زهرة خافضة رأسها بمكر:

ـ لم تختلف كثيراً يا عولق، ها قد عدت تتحدث من أقوال الكتب، ومع ذلك أجدني مقتنعة بحديثك وسلامة نواياك.

سألها عولق قائلاً بشك:

ـ هل هناك ثمة شيء تعرفينه عني يا جارتي؟

ـ لا ... لا شيء.. انصرف الآن إلى عملك.

أجابت عليه بارتباك، وبعد أن فارقها فكرت في الأمر من جميع جوانبه، هل حقاً لا يتذكر أي شيء عن نفسه ؟ ماذا لو كان يخدعها ليستدر صفحها وشفقتها ؟ لِمَ لا تصل معه إلى نهاية مؤسفة؟ ومن ثم تطرده من السمسرة وترتاح من عذابات الماضي؟ ماذا تنتظر بعد؟ ها قد عاد إلى أقوال الكتب وأصبح وجوده يؤلمها ويضايقها أكثر، وقد فكرت أن تكشف له السر، ولكن خشيت أن يبدو ذلك منها تنازلاً وضعفاً ونزوعاً إلى الصلح والوئام. والحقيقة هي أن زهرة لم تشأ أن تعترف أنها غدت

من أعماقها متهاونة معه كثيراً، وذلك لأن أواصر العرفان والعيش بين الناس لا تنقطع تماماً ، آصرة واحدة هي التي تبقى، وتجذبهم نحو بعضهم البعض من طرف خفي لا يشعروا به.

وفي أحد الصباحات، وبينما عولق منتصب عند بوابة فناء السمسرة، مال إليه رجل بدين صافحه قائلاً:

ـ أخيراً، عدت إلى سمسرة زهرة أيها العدني، إنك تبدو على ما يرام.

دقق عولق النظر في ملامح الرجل، وأجاب بتعجب:

ـ أنا لا أذكر أنني قابلتك من قبل، أخبرني أين التقينا ومتى؟

صاح الرجل قائلاً:

ـ أنا مالك سمسرة سوق الملح، لقد عشت معنا سنوات عديدة في السمسرة، قبل أن تصاب بحالة غريبة من الاكتئاب والصمت، ولكنك تركت جملتك الشهيرة يتداولها جميع أهالي صنعاء.

ـ جملة شهيرة ؟ ماذا تقول يا رجل؟

ـ نعم، لقد صرت مضرب الأمثال، وطالما يردد الشبَّان المسلمون كلما مرت يهودية حسناء:

(إن تسلم زهرة أو يتهود عولق). هل أصبحت يهودياً الآن؟

ـ أنا لا أفهم شيئاً مما تقول، ولست على ما يرام كما تظن.

ـ كنت أعرف أن اليهود سوف يدسون لك السحر في الطعام، لأنهم أهل كتاب، ولن يسرّهم أن يعشق مسلم ابنتهم. ولكنك تستطيع أن تصبح يهودياً دون أن يشعر أحد بذلك، لأنك غريب عن الناس، وبوسعك أن تزعم بأنك من يهود عدن، ومن ثم تدفع الجزية، وتتزوجها بعيداً عن القاع. إنك تستطيع أن تفعل ذلك، وتخلصنا من شرورها.

رد عولق باحتجاج :

ـ أنا أبديت لك رغبتي بالزواج من صاحبة السمسرة؟ إن كان ذلك صحيحاً، هل لديك دليل يثبت إقامتي في سمسرتك؟

هتف صاحب السمسرة قائلاً بثقة:

ـ أليست أمتعتك دليلاً كافياً، وبحق العيش والملح السابق سأبعثها إليك في المساء، إنني هنا من أجل لقاء زهرة.

سار الرجل ناحية باب السمسرة بخطوات مشدودة،

وتابعه عولق بنظرة محتارة طويلة حتى دلف إلى الداخل، ثم لمحه قرب دكة الاستقبال يتحدث إلى زهرة ملوحاً بذراعه اليمنى في الهواء بحركات عنيدة، كان بعيداً لا يسمع ما يدور بينهما من حوار،

مرت لحظات وجيزة زادت خلالها تلويحات الرجل، وارتفع صوته، فاقترب عولق، خائفاً من أن يكون هو موضوع ذلك الحديث، ولكنه اطمأن حين وجد الحديث يدور حول النزلاء، سمع صاحب سمسرة سوق الملح ينفخ الهواء المحبوس في صدره، ويزمجر قائلاً:

ـ أنتِ تقطعين أرزاقنا، وتستحوذين على عدد كبير من النزلاء، هذا ليس عدلاً، يجب أن تقابليني غداً عند محكمة المدينة.

كانت تجيب زهرة قائلة:

ـ لا ترفع ذراعك في وجه امرأة، ليس لك عندي شيء، أخرج فوراً من سمسرتي، وإن لم تكف عن أذيتي سوف أحرق خصلات رأسي على فناء المقام الشريف.

وعند هذا الحد، انسحب صاحب سمسرة سوق الملح منكسراً، لأن تهديدها جعل جسده ينتفض من الخوف، وكأنه أدرك إن الأمور لن تسير في صالحه.

وفي المساء أتت أمتعة عولق.. وأخذ الأخير على ضوء السراج يقلب بين يديه مجموعة من الكتب، ورزمة من الأوراق، مد يده إلى الأوراق الخشنة المكتوبة، وعرف خطه النميم الواضح، وراح يقرأ ما كتب على مهل، وسرعان ما صعق من هول الحقيقة.

وما إن طلع الصبح وأقبلت زهرة في موعدها المعلوم، حتى فوجئت بوجود عولق متجمداً قرب دكتها، واستبشرت أنه لا زال حياً من خلال اهتزاز أهداب عينيه، قالت تخاطبه:

ـ ماذا تريد يا عولق؟ إنك تبدو في حالة يرثى لها.

أجاب بصوت متذبذب:

ـ ما أود أن أقوله شيء فظيع، اغفري لي يا زهرة، لا أطمع بأكثر من ذلك، هاأنذا اكتشف أمر الهفوة من أوراقي السابقة، وتمنيت لو بقيت على جهلي وجنوني، اغفري لي.. أرجوك.

انتظر أن تجيب، ولكنها لاذت بالصمت، فاستطرد:

ـ انظري إليَّ، لم أعد إنساناً سوياً، إنني كحيوان نفدت قواه، لا تخافي يا جارتي، لن يظن أحد ذو عقل أنني كنت شريكك ذات يوم، من أجل ذلك أتجرأ وأسألك عن ثمرة تلك الهفوة.

انتفضت زهرة كما لو فزَّت من حلم مرعب، وهمست بنبرات حادة:

ـ اخفض صوتك أيها المخبول، ولا تحاول خداعي مرة أخرى، أرجو أن تنسى أمر الثمرة، لأنها باتت ناضجة الآن، أنت لم تفعل شيئاً من أجلها بعد أن بذرتها، ولذلك لا تستحقها، وأرجو أن تتجه فوراً إلى حمام البخار ثم إلى المزيّن.

رفع أنامله بتكاسل إلى لحيته، وتحسسها بارتياب شديد، وقد أدرك أنها تريد أن تصرفه من أمامها، وأجاب بيقين :

ـ نعم، أنا لا أستحق الثمرة، عندك حق في ذلك، وأعدك ألا أهمل مظهري بعد اليوم، وأن أسعى إلى إعالة نفسي.

قطع بضع خطوات، ثم انتبه إلى شيء، فعاد إلى أمام الدكة وأضاف:

ـ لِمَ لا يتم بناء حانوت للزينة ملحق بالسمسرة؟ إن المكان هنا مزدحم بالنزلاء، والفتى عبدالمنعم كما أعلم يجيد الزينة.

انتفض جسدها مرة أخرى بفعل المباغتة، ووجدت نفسها تجيب باضطراب:

ـ عبدو؟ .....، نعم ، إنها فكرة جيدة، لم التفت إليها من قبل.

تنفست الصعداء بعد أن مضى، واستغربت أن يتنازل عولق عن الثمرة بتلك السهولة، ثم لم تلبث أن أحست ناحيته بالشفقة، وفكرت في أن تثق به، فأذنت له بإنشاء مشروعه، وأراد عولق أن يكون الحانوت نموذجاً مشابهاً لمحلات الزينة الراقية في عدن، إلا أن نقص أدوات الزينة في أسواق صنعاء، جعلته يرضخ للإمكانات المحدودة، ورغم ذلك كان المقعد الخشبي يبدو مغرياً للزبائن، فضلاً عن المياه المعطرة، ومياه التعقيم والمناشف ورغوة الشفرات.

وانتشر بسرعة خبر الحانوت في المدينة وضواحيها، وازدحم الرجال المنتظرون لأدوارهم، وصار عولق ينظمهم، ويقبض منهم الأجرة، ووفد أيضاً الوجهاء وأصحاب المراكز الهامة في المدينة، ولمثل هؤلاء الأشخاص نظامهم الخاص، لم يكن بوسع عولق إلا أن يدفع بهم إلى المقعد الخشبي على الفور، وليس في مقدور أحد من الزبائن الآخرين الاعتراض على ذلك، حيث درج الناس على مداهنة الوجهاء والأثرياء واحترامهم، وقد ظنوا أن الله اصطفاهم وفضلهم على غيرهم بالنعمة والوجاهة، وهو سبحانه وتعالى الخبير الحكيم. وفي يوم قريب، جاء قاضي العقوبات إلى الحانوت، ولم يعرفه غير عدد محدود من الزبائن أصحاب القضايا والمحاكمات، فهبوا وقوفاً في احترام شديد، وجعلوا يحيونه ويرفعون أذرعهم بالسلام والترحاب، وصاح أحدهم بصوت جهور:

"اسمحوا لقاضي العقوبات أن يمر إلى المقعد".

جعل عولق يتبعه بتكلف زائد حتى أوصله إلى المقعد، بدا قميصه الكحلي فضفاضاً واسع الأكمام، مفتوحاً عند العنق، وعمامته بيضاء مستديرة تبعث الهيبة والوقار. وأسرع الزبون الشاغل للمقعد، بالتنازل عن موقعه للقاضي، وبدا شكله مضحكاً، وهو بنصف رأس أصلع، والنصف الآخر مغطى بالشعر، وأسرع القاضي بخلع عمامته، فامتدت

الأيدي نحوها، حتى فاز بها أقرب شخص إليه، وهو الزبون الذي تنازل له عن المقعد، وبدأ عبدالمنعم يقص شعر القاضي بصمت، أخيراً تنحنح القاضي، وخاطبه قائلاً:

ـ ما أنعم أصابعك يا بني! ألست يهودياً؟

رد عبدالمنعم:

ـ لا.. أنا مسلم من الفليحي، وأبي هو المزيّن غيلان.

ـ والدك التعيس في السجن، لقد حكمت عليه بالسجن خمسة أعوام، لأنه قذف زهرة اليهودية بالزنا، ولم يستطع أن يثبت ذلك. لا تحزن يا ولدي، إن هذا العام هو الخامس والأخير، وسيفرج عنه قريباً.

ارتعشت أنامل الفتى وتوقف عن العمل ، وقال بخوف:

ـ إنه يطاردني لكي يعيدني إلى حانوته، ولكني لا أريد أن أعود إليه.

ـ لم تبلغ السن الذي يؤهلك للانفصال عن عائلتك. "أنت ومالك لأبيك" كما قال رسولنا محمد.

توقف عبدالمنعم مرة أخرى عن العمل، وبدا ذلك إنذاراً أخيراً يوجهه إلى الرجل الجاثم على المقعد، بأن يلزم الصمت، وإلا لن يحظى بتزيين رأسه، ورد بنبرات قوية:

ـ أبي غيلان أنكرني، ونفى نسبي، وأعلن ذلك في شوارع وأسواق المدينة. هل تدرك ماذا يعني ذلك؟

انتفض القاضي من قعدته، وهو يسمع تلك النبرات الحادة، وفوجئ أن يخاطب بتلك اللهجة غير المعهودة، رفع بصره إلى وجه الفتى الغاضب، وأحس مع قسوة نظرته برغبة في الاستمتاع بمراسيم الزينة، دون أي تصرف يؤدي إلى إفساد تلك الراحة التي يشعر بها.

كما شعر أن الفتى القاصر يجهل مقامه ومهنته، ولولا ذلك ما كان تكلم على ذلك النحو الساذج، وأراد أن يلفت انتباهه إلى منصبه الرفيع، فقال بوقار:

ـ تحاش أن تستأصل شعيرات لحيتي، فأنا قاضي العقوبات في المدينة، شذبها فحسب.

بعد لحظات أنهى الفتى عمله، وارتدى القاضي عمامته، وخرج متجهماً، بعد أن قذف أجرة الزينة إلى قعر المقعد. ولم يتجشم أحد الحاضرين عناء اللحاق به والاعتذار له عن سوء تصرف الفتى، لأن أجسادهم لم تتحرر من جمودها ودهشتها إلا بعد فوات الأوان.. ومن هذا الحوار انتبه عولق إلى شيء معقول، عبدالمنعم هو ثمرة الهفوة، إنه ولده.. شعر بسعادة غامرة وتكوم العطف الأبوي داخله دفعة واحدة وكاد يعانقه..

وخلال هذه الفترة لاحظت زهرة إن عولق عاد يمارس عاداته القديمة، بات يقرأ الكتب، ويكتب على الأوراق الخشنة، ويستضيء بفانوسه القديم،

حتى شعرت إن الزمن تراجع إلى الوراء، إلى تلك الأيام الماضية التي حدثت فيها الهفوة.

وظل محتفظاً بدكته القديمة حتى جاء إلى السمسرة شيء مزعج، فاضطر إلى المبيت في جزء ما من الحانوت، وحل في دكته نزيل تهامي أتى من عدن بمذياع كبير الحجم، وما إن وطأت قدماه أرضية السمسرة، حتى فتح مذياعه على أخبار إذاعة (B.B.C) الناطقة بالعربية، ولم يكن مهتماً بشيء سوى إظهار مقدرة ذلك المصنوع على الكلام والغناء، وعندما شاع خبر المذياع توافد النزلاء إلى السمسرة، وازدحموا حول دكة التهامي الذي شرع بمسح المذياع بعض الوقت، متلذذاً بمشاهدة علامات القلق والتوتر بادية على وجوههم المتلصصة. وحين سمع توسلاتهم شعر بالأهمية والفخر، ثم ما لبث أن استغل جهلهم بطريقة تشغيله فوجههم نحو أفعال غريبة مضحكة، فقد تذرع بأن مذياعه لا يعمل إلا إذا فتحت النوافذ، وخلع الجميع عمائمهم، وهم يطيعونه دون أي نقاش.

وأمر زهرة أن تجلس بجانبه على الدكة، لأنها ترتدي قماشا يساعد على تقوية البث الإذاعي ..

وقام النزيل التهامي الماكر بتشغيل المذياع، وما إن فتحه حتى حبست الأنفاس، وحل السكون التام، وسمع الحاضرون العديد من الأخبار والبرامج.. كانت الأخبار تنبئ عن اكتشافات كبيرة في مجال العلم، واستمعوا إلى رجال دين مسلمين يزعمون وجود تلك الاكتشافات في القرآن، وعبدة النار في الهند والصين يقولون إن إبليس لم يخطئ عندما أخرج آدم من الجنة، لأنه ليس أبو البشرية، وإنما هو جدهم الإنسان الأول الذي عاش قبل مليون سنة، وعُثر على جمجمته ورفاته في إحدى جزر شرق آسيا. وأما أهم تلك الأنباء، التي عصفت برؤوس المستمعين، وشحنت قلوبهم بالغيظ والحقد،

فهي الأنباء التي تفيد بنزوح مئات الآلاف من اليهود إلى أرض فلسطين ، وتصاعدت من المذياع أصوات المواطنين العرب هاتفة بالشعار "يا حكام المسلمين، أوقفوا زحف اليهود".

وردد النزيل التهامي الشعار بحمية شديدة، فتبعه النزلاء مرددينه بصوت صاخب، وساد الهرج والصراخ، وشعرت زهرة ببرودة على مؤخرتها، ثم لاحظت بعد فوات الأوان إن أنامل التهامي قد اخترقت الحجب والأستار، حتى وصلت إلى هدفها، وأدركت إن أي حركة اعتراض منها في غمرة الغضب والهياج ضد اليهود، سوف تؤدي بها إلى التهلكة، فتركت أنامل التهامي تهرش أردافها، حتى تمكنت من تهدئة النزلاء بعد وقت قصير، ثم أطلقت إلى وجهه نظرة قاسية جعلته يسحب أنامله المرتعشة، ونهضت للتّو راسمة على ملامحها انبساط زائف، إلى أن اعتلت دكة الاستقبال، وهناك

شعرت بنظرات المستمعين تسحقها، لأنها تنتمي إلى جنس اليهود المغتصبين، فانكمشت بموضعها محاصرة بالجفاء وسط ذلك المحيط المضطرب، وأخذت تستجمع كل ما بقى لها من شجاعة وسلطة للسيطرة على الوضع، ولكنها في الأيام التالية، واجهت أيضاً مشكلة اكتظاظ السمسرة، وتعرضت أردافها الطرية لقرصات الأيدي والاحتكاك غير البريء بأفخاذ الزوار، ففرضت رسوماً نقدية على كل من يريد الدخول للاستماع، بقشتان لصالح السمسرة، وبقشة واحدة لصالح صاحب المذياع.

بيد أن مجموعة من الشبّان اقتحمت السمسرة، وتكدست حول دكة التهامي لسماع الأخبار، واحتمت زهرة بدكتها العالية، وراحت تتطلع إلى ما يجري بصمت عجيب. وبعد خروجهم أتت زهرة إلى التهامي، وساومته على بيع مذياعه، ولما وجدها متلهفة عليه ظل يرفع سعره، حتى وقف عند خمسين ريالاً، وهو مبلغ كبير، يمكن أن يدفع مقابل ثور ضخم أو جمل. ولكن زهرة لم تندم على المال لأنها سرعان ما تخلصت من التهامي، بعد أن دربها على كيفية استخدام المذياع، ثم قامت بتحويله للعمل في حانوت الزينة. والذي وصلت إليه أيضاً "مرايا" كبيرة بواسطة تاجر من عدن ، مغلفة داخل أكوام من القطن والعطب الناعم، وهي ألواح زجاجية عريضة تم التصرف معها بحذر بالغ، حتى استقرت على جدران الحانوت. كانت كلمة "مرايا" غريبة ومثيرة للاهتمام، وكان لها وقعاً جميلاً في الآذان والنفوس.

وما إن عُلِّقت هذه الألواح الزجاجية على حيطان الحانوت، حتى أتت رسالة من المقام الشريف إلى زهرة، تطلب إيقاف العمل بالحانوت، ريثما يأتي أحد القضاة لينظر في أمر المرايا.

وفي وسط الأسبوع أقبل القاضي وأعوانه، بدا رغم وجهه الأخرق، مفعماً بكبرياء السادة، منفوشاً داخل قميصه كديك متأهب للقتال، ويبدو من عائلة اقتضت العوائد أن يكون ذكورها قضاة من المهد، وقد كتب والده على ورقة ميلاده" أفرحنا الله بالمولود القاضي"، و في نفس اليوم تولد معه عمامته المستديرة وتظل منتظرة له في ركن مظلم من الخزينة، قرب عقود أملاك ووثائق ومقتنيات العائلة الثمينة، إنها هذه العمامة التي حفرت مشارف رأسه والتأم عليها الجلد حتى صار من الصعب انتزاعها، وتظل رفيقته في أشد اللحظات خصوصية، حين ينام أو يضاجع أو يتبول، ولهذا السبب نما مع جسده حرصه الشديد عليها، وحين طلب فتح الحانوت، وقف متهيباً متحوصلاً، ينظر إلى ظلالها في الأرض، والجميع يحسب أنه يفكر في ما جاء من أجله، ولما فتحت زهرة الباب الموصد، لم يمنع عينيه من اختلاس نظرة عميقة إلى خلفيتها، ثم رد بصره بتأفف، ومرق إلى الداخل ممسكاً عمامته

حتى لا تصطدم بعتبة الباب، ووقف أمام المرايا، وعندما قابلته صورته صرخ مردداً أسماء الله :

ـ بسم الله الحنان المنان عظيم الشأن ....

سألت زهرة بفزع:

ـ ماذا هناك سيدي القاضي؟

ـ من هذا الرجل البشع؟

ابتسمت عند ذلك، حتى أثّر انفراج شفتيها وانعطاف خديها تأثيراً بالغاً في قلب القاضي، وأجابت:

ـ هذا أنت سيدي القاضي.

وشهد بذلك أعوانه الخمسة، وهم يتطلعون إلى صورهم بانبهار، ويتلصصون من المرايا الخلفية على عجيزة زهرة البارزة.

ـ كان خيراً لي ألا أراها.

قال ذلك بيأس، ولكن بعد أن زال تأثره استحسن عمامته ومؤخرة زهرة، لمحهما بواسطة المرايا الخلفية، فاستدرك بحرقة وهو لم يرفع نظره بعد عن استدارتها :

ـ ولكنها جميلة على أي حال من الأحوال.

ضبطت زهرة القاضي متلبساً بتلك النظرة الخارقة، فأشفقت عليه، أليس رجلاً رغم بشاعته، وتظاهره الغبي بالحشمة والوقار؟

الكل في مدينة صنعاء يتظاهرون بعكس ما يدور في بواطنهم، وهذا هو التردد والجبن والنفاق. وإلا لِمَ لا يفصحون عما في بواطنهم، ويعيشون الحياة بصدق وجدية، بعيداً عن الإيمان الكاذب، والحكمة الزائفة، إنهم أشبه ما يكونون بصورهم التي تعكسها المرايا، بل أبشع من أي شيء محروم في الوجود. إنهم يستحقون الشفقة.

فكرت بذلك قبل أن تقول بأسى:

ـ إنها حقاً جميلة وبيضاء وطرية.

انتشى القاضي وظن زهرة ساذجة لم تفهم قصده، وبعد قليل وقعت في ذاكرته اللغوية لفظة "طرية" التي لا تقال إلا للأعضاء أو الفواكه. فتجمدت الدماء في عروقه، وأدرك أنه هو الساذج، وأختلط عليه هل قصد بقوله العمامة الأثيرة أم المؤخرة المثيرة، كلاهما بمنزلة واحدة في نفسه، لكن آخر نظرة وقعت في جسد زهرة، فأسرع إلى تقمص دوره السابق المراوغ، الجدية والحشمة وهيبة المنصب والمقام، فظهر مدعياً ومنافقاً بوضوح. ثم شغل نفسه عن تلميحها بالكتابة على ورقة مجلدة خشنة. وجعل يرفع عقيرته ناطقاً ما يكتبه بلغة فخمة لا يستخدمها إلا القضاة وأصحاب الأحكام القاطعة. كانت بالمختصر المفيد رسالة موجهة منه إلى ولي الأمر يشرح فيها بعد السلام والتحية:

"إن المرايا قطع بيضاء، عريضة مسطَّحة، تعكس صور الأشياء التي أمامها، ورغم أنها لا تعطي المرء حقه كاملاً من الجمال كما هو في الحقيقة، إلا أنها تنقل صور النساء بشكل أفضل من صور الرجال، ولذلك فهي ذات أهمية كبيرة لزينة المرأة، وليس هناك ما يمنع وجود هذه "المرايا" في قاع اليهود، ولو أن وجودها في محيط صنعاء يعتبر نوعاً من القنوط والتبطر، كونها بدعة مبتكرة، ويكفي لتحريمها أن رسول الله محمد، وأصحابه لم يستخدموا المرايا، ولو كانت موجودة في عهده لحرّمها. فهي تجعل القبيحين يفقدون الثقة بأنفسهم، وتضاعف شعورهم بعدم عدالة الله في خلق الأجساد، وعلاوة على ذلك إنها تدفع أهل الحُسن والجمال إلى الغرور والتبجح، وصيد أكبر قسط

من فرص الحب والسعادة والثقة بالنفس، ويأتي القاضي إلى كلمة الفصل، فيقول:

"إن المرايا جائزة دينياً لغير المسلمين، ولليهود بالذات أن يستخدموها بسبب جمالهم المفرط. وذلك لأن دينهم أوسع من مساحة الربع الخالي، وما أدراك ما صحراء الربع الخالي؟ أما نحن ، ولحكمة أرادها الله، فإن ديننا لا يعطينا حرية التصرف في كثير من مُتع الدنيا، وقد كبّل أبداننا وأرواحنا بقيود كثيرة لقاء جنة الفردوس. وها قد ألزمنا الحُرّة زهرة اليهودية، بعدم البدء بالعمل في الحانوت حتى

يتشرف مولانا بالقدوم، لافتتاح المشروع، ليكون رأسه الشريف أول رأس يُزيّن أمام المرايا.

ووفق الله ولي أمرنا إلى ما يحبه ويرضاه".

وانتهت مشكلة المرايا بعزل القاضي، لم يكن ذلك لسبب آخر، غير اعتقاد ولي الأمر بأن القاضي يتباهى بمعرفته للجغرافيا الطبيعية للبلدان المجاورة، والعبارة التي أدت إلى عزله هي تلك التي تقول:

"وما أدراك ما صحراء الربع الخالي"؟. أي دعي هذا، حتى يلتقط هذه المعلومة من فم سيده في إحدى الجلسات، ثم يعيدها إليه في رسالة وكأنه لم يسمعها من قبل.

كان يوماً شاقاً اليوم الذي أقبل فيه ولي الأمر إلى السمسرة، خسرت "زهرة" عشرة ريالات في تعطير وتطييب ونظافة المكان، وألبست "حنا" وعبدالمنعم وموشي والطباخة ملابس جديدة مصبوغة، ذات ألوان فاتحة وارتدت هي إزاراً أخضر، وشالاً أزرق وستارة حمراء ملونة بالأسود، تغطي الأجزاء البارزة من جسدها، كانت تعلم أن ولي الأمر، رجل محافظ بطبعه ، لكي يفرض الحشمة والعفاف على رعيته وليصير قدوة للآخرين ومثالاً يحتذي به، لم يكن قد زار الطائفة اليهودية أو السمسرة من قبل، كان فقط يمشي بموكبه وسط قاع اليهود لينفذ منه إلى الضواحي الأخرى.

هذه المرة أطل على السمسرة إطلالة سريعة ثم أمر بفتح حانوت الزينة ليرى المرايا ويتزين. وأراح جسده على كرسي "الزينة" ونظر في المرايا، فأدهشته تلك الصورة المهيبة والسحنة المتكلفة، وانشغل العكفة عن سيدهم بتأمل صورهم، وأخذت زهرة عمامته الطاهرة وترفقت بها كبيضة حتى أنزلتها فوق رف خشبي، وابتدأ عبدالمنعم يمارس عمله بدون رهبة أو تكلف. لم يحاول عولق أن يسدي إليه سلسلة من الوصايا و التحذيرات، فقط ألمح له بأن التصرف بلياقة مع أي زبون يجلب للمزيّن الحظ الجميل، ويكسبه محبة واحترام الآخرين. جعل يقصف الشعر الغزير بروية، وهو لا يشك في أنه يقصف شعر بدوي من بني ظبيان، ولو أدرك من يكون زبونه لسقط المقص من بين أنامله، ولكن من حسن حظه في هذه الحالة أنه لا يملك قدراً كبيراً من الذكاء ليستلهم الفرق بين الرجل العادي، وبين الرجل الذي تحتاط به عشرات العُكفة.

كان ولي الأمر، قد كف عن الانشغال بصورته، بعد أن بدت له عادية، بل وتوشك على التحول نحو الأسوأ، وهو الكهولة.وراح يتأمل جسد زهرة باشمئزاز، وبين فينة وأخرى يلقي إليها من خلال المرايا، نظرة هامشية قاسية، حتى انتبهت إلى تقاطيع وجهه الجامدة الخالية من العفوية والطلاقة. وسرعان ما أوحى إليها ذلك، أن ولي الأمر يتحلى بوازع ديني متصلب، ولاحظت أن تعابير ملامحه المتغضنة والوقورة تشبه تعابير وجه والدها حاييم، وعند هذه الوهلة شعرت بالخوف

يتسرب إلى روحها، وهلَّت عليها الأفكار المريعة، وهي تتذكر هفوتها، واقتراب موعد خروج المزيّن غيلان من السجن، بعد انقضاء مدة عقوبته، في تلك الأثناء انطلقت صيحة من خارج الحانوت وبصوت مميز مختلط بالبكاء:

ـ يا ولي أمرنا العظيم، أنصفني من قحبة قاع اليهود "زهرة". أعد إليَّ عبدالمنعم، وعاقبها على الخطيئة التي اقترفتها.

ارتمى المزيّن غيلان بثقله إلى داخل الحانوت، وأمسكت به العكفة، واضطرب حال عبدالمنعم، وأفلت منه المقص، فشتف أذن ولي الأمر، وأصاب الهلع الجميع لاسيما زهرة وعولق، حين سمعوا صرخة ألم كبيرة انطلقت من فمه ، ورأوا الدماء تنزف بشدة، وأنقذ عكفي سيده من السقوط الوشيك على الأرض، وحدثت فوضى شديدة في ذلك الحيّز الضيق، نجم عنها بعض الأخطاء الفادحة، أخذت زهرة قارورة كيروسين تستخدم لتغذية السراج، ورشت بها وجه ولي الأمر، وهي تظن أنها قارورة ماء الورد.. وأراد عكفي أن يمسك زمام المبادرة لإنقاذ سيده، فطلب استدعاء طبيب من صنعاء، بينما لا يوجد هناك أطباء، وكل الأطباء المهرة هم في

الغالب من أهالي قاع اليهود، وأقرب طبيب إلى مكانهم يبعد منزله عن الحانوت بضعة أمتار، وأثبتت هذه الحادثة، إن العكفة لا تفكر من رؤوسها، بل من أقدامها، والدليل على ذلك أن عكفياً مهووساً بالمشي، سار ليبحث عن طبيب في حارات القاع البعيدة، وعندما جاء بطبيب لم يجد سيده على المقعد. ولولا رؤيته أثر الجرح في أذن ولي الأمر في وقت لاحق، لظن ما حدث حلماً راوده في المنام. وفي هذا الحدث، تمت تبرئة عولق وعبدالمنعم وزهرة، وألقيت تبعة ذلك على غيلان وحده، وفي لحظة لم تستطع زهرة النطق دفاعاً عن نفسها، أمر ولي أمر المسلمين أن يساق غيلان إلى السجن حتى يتم النظر في شكواه. كانت تهمته الأساسية هذه المرة، هي إقلاق سكينة ولي الأمر، والتسبب بجرح إحدى أذنيه الشريفتين اللتين يسمع بهما شكاوى الرعية ونجواهم. ولكي تتأكد زهرة من سلامة سمعه، فتحت المذياع، وصادف أن كانت الأخبار تدور حول اقتراف أدولف هتلر مذابحه العظيمة ضد يهود ألمانيا خلال الحرب العالمية الثانية، فانفرجت أساريره بصعوبة بسبب الألم، وقال بصوت طافح بالتشفي:

ـ شكراً هتلر، لتدخل التاريخ مكللاً بالأمجاد.

قالت زهرة في سرها بضجر:

"ليدخل معه الجحيم كل من في قلبه ذرة كراهية ضد بني إسرائيل الذين فضلهم الله على العالمين".

ولمح ولي أمر المسلمين وجه زهرة الممتقع، وظن أنها تغار على أبناء دينها كما يغار المسلمون على بعضهم البعض، فأضاف مواسياً:

ـ ما دمتم تدفعون الجزية، فأنتم بأمان من الموت في بلاد الإسلام. لا خوف عليكم إن التزمتم بعهودكم، لأن القرآن يصفكم بنقض العهود والغدر، وهو لا يكذب لأنه كلام الله عز وجل.

صمتت زهرة وكانت على وشك أن تصرخ قائلة:

"إنها بلادنا أيضاً، أجدادنا خلقوا فيها قبل أجدادكم لا ندري كم عدد السنين الفارقة، لسنا غرباء، تباً للأديان..."

كادت تنفث غضبها واحتجاجها في وجهه، ولكن ليس الآن... أمسكت لسانها في الوقت المناسب، فقد أوشك عبدالمنعم أن يفرغ من عمله، وبعد لحظات نهض ولي أمر المسلمين من المقعد، ووجهه منقبض من الألم، ونفح خزينة الحانوت ريالاً واحداً فقط. وقال قبل أن يغادر الحانوت موجهاً كلامه

إلى زهرة:

ـ لابد أن نتحقق من اتهامات المزيّن غيلان، إنه يبدو مظلوماً منفطر القلب، ولكن لابد أن يقضي بعض الوقت في السجن بسبب ما حدث.

وعقب قوله راودتها فكرة الهروب من قاع اليهود، لتنجو بجلدها من المتاعب التي تطاردها منذ زمن طويل، ستهرب من لسان غيلان المقذع، ومن هفوتها الحية، ومن نظرات النزلاء البغيضة ووجوههم الجافية وتصرفاتهم الحيوانية، ومن الكراهية الموروثة لليهود. ولكن إلى أين ترحل؟ إلى الأراضي المقدسة، أم إلى أي جزء من أجزاء المعمورة؟ لا زالت تجهل المكان الذي سترحل إليه، وفكرت في أن تستثير همم يهود القاع من أجل الرحيل إلى القدس، أسوة بيهود العالم. ولكنها أزالت هذه الفكرة عن رأسها.. ومال تفكيرها إلى شريكها في الهفوة، سيساعدها على الهجرة، وسينال لقاء ذلك ما يصبو إليه من مال أو عقار، ولن تبخل عليه بأي شيء تمتلكه. ومن أجل ذلك استدعت عولق لكي تطلعه على ما يجول في نفسها من أفكار..

وعند الظهيرة جاء إلى غرفة المؤن، وانتابته القشعريرة وهو يدخل تلك الغرفة التي وقعت بها الهفوة. رآها واقفة متأهبة للحديث، والقلق مرتسم في ملامحها المضطربة، كانت قد عقدت النية على التأني في طرح رغبتها المضمرة، لتبدو غير مكترثة أو متعجلة، ولكن وجدت نفسها تقول باهتمام:

ـ هذه "المرايا" جلبت لنا المتاعب، لا تدرك يا عولق كم أواجه في السمسرة من مشاكسات ونظرات احتقار.

رد عولق قائلاً بأسف:

ـ ظننت أن ما أفعله يسعدك يا جارتي، ولا زال لدي الكثير من التصليحات التي أرغب أن أجريها على السمسرة. سأحولها إلى فندق يعمل بنظام الغرف...

ـ يجب أن تتوقف عن إجراء أي تصليحات جديدة، لأن الحال تغير، لم أعد أرغب في البقاء بقاع اليهود. وأعول عليك أن تساعدني على الهجرة عبر عدن، وسأجعل الحانوت تحت تصرفك أو السمسرة، أو أشاركك في جميع أموالي وأملاكي.

ذابت عيناه وساحت دمعتان متوازيتان على عارضيه، وسألها قائلاً بضيق:

ـ عما تتحدثين يا جارتي؟ لا أظنك جادة ..

ـ نعم، أنا جادة، إن هناك أموراً لا تعرفها تجبرني على الهجرة، إنني مرغمة، ويمكنك أن تساعدني على الخروج من هذه القاع.

أجاب بانكسار مريع:

ـ نعم، إننا نبدو كالغرباء في بلادنا، وسوف أساعدك على الرحيل، ولكني لن أشاركك في شيء من أموالك، أنا شريكك في الهفوة فحسب، ولا زلت أدفع

ثمنها من سنوات عمري الضائعة، كان بوسعي أن أعود إلى عدن، لكي أصلح ما أفسدته، ثم أسعى

إلى تكوين أسرة صغيرة، وأترقى في حقل التدريس حتى أصبح وزيراً للتعليم، ولكني لم أفعل..

استرد أنفاسه، وأضاف:

ـ هلا سألت نفسك لِمَ لَمْ أفعل ذلك؟ ولِمَ أصبت بالعته والصمت، ولِمَ هجرت كتبي ومذكراتي وتحولت إلى نزيل، بغيض قذر، ثم إلى أجير داخل السمسرة.

ـ نعم، أدرك ذلك يا عولق، لقد كنت تود أن تظل بجانبي ..

ـ لا.. ليس هذا فحسب، بل لأنني أحبك، نعم، أنا مفتون بك يا زهرة.. وهذا كل شيء..

ـ ألم تنفطر قلوبنا ونفشل من قبل، ونحن نحاول تفادي عواقب الهفوة؟

رد بجذل متجاهلاً حديثها عن الهفوة:

ـ سأتهود من أجلك يا زهرة...

ـ لِمَ تفعل ذلك يا عولق؟

ـ ينبغي أن نرحل سوياً، إننا خلقنا لكي نعيش معاً.

ـ إن أقوال الكتب تبتعد كثيراً عن الواقع.

ـ أنا أشتهيك يا زهرة، هذه هي الحقيقة، لا زلت متفتحة وعابقة بالفتنة، هذه هي الحقيقة.

ـ إياك أن تلمسني يا عولق، ابتعد، لا تفعل هذا. أنت مجنون، لا.. أرجووووووووك.

أطبق عليها، واستلقى فوق جسدها، راح يقبلها ويلثمها لاهثاً من الانفعال، ورغم هذا التعبير القسري للحب، فقد خضعت واستسلمت. كانت مشاعره صادقة بحيث لم تجد بداً من التغاضي..

وعندما هدأت أنفاسه المتذبذبة، وعادت دقات قلبه إلى طبيعتها، قال يخاطبها بمكر:

ـ ألا يجب أن نحظى بلذة أخيرة ؟

أجابت زهرة متأوهة:

ـ لا جدوى من ذلك يا عولق، إنها لذة عابرة.

ـ نعم، ولكنني سأحتفظ بالفتى المزيّن، لأنه غدا كل شيء لي في الوجود، وسأتحمل مسؤولية رعايته.

ـ أوه، "عبدو"، سيرحل معي، إنه جزء مني، أنا من اعتنى به وأنفق عليه صغيراً، أنت لا تستحقه.

ـ إننا على حد سواء، لقد تخلينا عنه، يا له من مسكين، إنه لا يعرف الحقيقة. لا يدرك بعد أننا والداه الخائنين .

في تلك اللحظة بالذات، أتت إليهما جلبة طفيفة من

ناحية الباب الموارب، وعندما خفا إلى هناك، كان

الفتى المزيّن يعدو بين الدكاك فارا من السمسرة .

دخل صنعاء من أقرب أبوابها إليه ،وهو باب البلقة كالمعتاد، لقد اكتشف أن وجوده في هذه الدنيا كان نتيجة هفوة قام بها مخلوقان بائسان ،وها قد عادا اليوم يخططان لكي ينتزعاه من الأرض التي ترعرع فيها، كيف ظل مخدوعاً كل تلك المدة الطويلة؟ أمسى تائها يسير دون هدى أو هدف، أحس أن المدينة لم تتغير، وكل شيء فيها لازال على حالته الأولى، الدور متراصة ومتلاصقة بحميمية كاذبة، على عكس وجوه أهاليها المتغضنة الكالحة، ابتسامات أصحاب الحوانيت تبدو كعادتها متكلفة، والدعوات الاعتيادية لتناول قهوة نهشل لازالت تلك اللقاءات التي ينفثون من خلالها أفراحهم وأتراحهم وحتى أحقادهم .

أول ما داست قدماه حارة الفليحي رأى حانوت الزينة مغلقا ويبدو بابه مهجورا وملونا بلون بني قاتم . عرج إلى القبو الذي عاش فيه طفولته المريرة وتردد قليلا قبل أن يطرق بابه الصغير الهش ، وبعد وهلة قصيرة صافحت عيناه وجهاً مترهلاً مجدوراً ، لم تمهله المرأة حتى يتحدث إليها ،بل صفقت الباب في وجهه، وتركته مندهشا من تصرفها الغريب،

لكن سرعان ما انتبه أن غيلان قضى مدة طويلة في السجن ولازال معتقلا حتى تلك اللحظة، ويعتبر هو مسئولاً عما حدث..تلك المرأة ـ بنت بائعة الخضار ـ التي كان يظنها أمه حولتها الأيام القاسية التي مرت بها إلى امرأة هرمة سيئة المزاج. عاد مرة أخرى يتخبط بين أزقة حارته القديمة، وعندما عبر من جانب مقهاية مدهش أرعبته صيحات الهزل والضحك ،وحين لمحه أحدهم صاح في فرح كأنما اكتشف (لقى) أثرية :

ـ ها هو" الزنوة"،عمرك طويل يا عبدالمنعم، إننا نتحدث عنك .

ـ "هيه انتظر..." صاح أحد الباعة.

لكنه غاب عن أعينهم، ولحق به أطفال الحارة وأخذوا يقذفونه بالحصى ويصيحون بأصوات قاتلة :

"زنوة..زنوة..زنوة...."

تلقاها كصفعات مؤلمة، لقد طرد مرة أخرى من المدينة، ومرق من باب السلام إلى الخارج، واستغرب من زيف هذا الاسم، وتلاشت الأصوات، وعاد مرة أخرى وسلك طريقاً ضيقاً أدت به إلى حارة" الطواشي"، واستقبله الأطفال هناك وطاردوه بأصواتهم، واستطاع أن يضللهم عندما اختفى "ببدروم" أرضي لمبنى آيل للسقوط .. ولما هدأ اللغط حوله تسلل إلى حارة "الأبهر" في أقصى

المدينة، وسرعان ما طورد، واضطر أخيراً إلى الخروج من المدينة وانتظر حتى حل الظلام، وكادت البوابة تقفل عليه، لكنه دخل في آخر لحظة، وسار بخطوات متسللة وأوى إلى احد المساجد ..

كان تَعِباً ويود أن يستلقي على ظهره ويغمض عينيه إلى الأبد ،إلا أن تحركات المصلين ودمدمة أصواتهم بالأدعية والآيات منعه أن يفعل. كانت نظرات إمام الصلاة تلاحقه وتترقبه، خرج إلى الفناء المظلم واستكان به، رغم ذلك تسلل اثنان إلى جانبه لم يستطع رؤيتهما ولم يلمحاه، طفقا يتحدثان عن أمور شتى حتى قال أحدهما :

ـ يقال أن "الزنوة" عاد إلى المدينة..

ـ إنه مثل الحمار الذي يترك البرسيم ويلهث وراء روث الأتان..

ـ ألا ترى أن وجوده هنا سيجلب له المتاعب ؟ لم يعد لديه أي مأوى أو مصدر للرزق..

ـ من يرغب في أن يؤويه ؟ إنه ابن زنا، وفوق ذلك يعيش في رفقة اليهود ..

صارت دموع الفتى تتدحرج إلى سطح الفناء البارد، أي مكان آخر يمكن أن يحميه من ألسن الناس بعد هذا المكان المقدس! رغماً عنه أحس أنه ركل النعمة في خاصرتها كما يقال في المثل . ما كان يجب أن

يغادر قاع اليهود إلى المدينة، حتى لو اكتشف فجأة أنه من نسل الشيطان..

ثم شعر بالجوع ، أما العطش فقد أطفأه من ماء السبيل المركون في فناء المسجد، ويبقى الأمل في أن يدعوه أحدهم إلى منزله.. فقد تعرف على زبائن له، وشجعهم على دعوته بابتسامة خجول. ولكن خرج جميع المصلين دون أن يلتفت إليه أحد، وبقي لديه احتمال ضعيف في أن يدعوه الإمام، الذي أشار إليه أن ينصرف بحركة آمرة من ذقنه، وعندما شرع يوصد باب المسجد أدرك عبدالمنعم أنه سيفقد المأوى، كان وجه الإمام الذي يعرفه عز المعرفة لا ينبئ بخير، فقد زرزر سحنة ملامحه بالجدية وصرامة التقوى، لذلك لم يشأ أن يدعه يفلت كالآخرين، فاقترب منه حتى سقط على يديه يقبلهما، فقال الرجل بفجيعة :

ـ استغفر الله، ماذا تفعل يا بني ؟

ـ افعل شيئا من أجل الله وليس من أجلي..

ـ ماذا تريد؟

ـ طعاماً ومأوى..

ـ أأنت المزيّن الذي فتح حانوت الزينة في قاع اليهود ؟

ـ نعم ، هو أنا، هل تود أن أحلق لك ؟ سأفعل ما ...

عندئذٍ قاطعه بصوت مريع :

ـ اغرب عن وجهي ، لن يرضى الله عني إن آويتك أو أطعمتك يا رفيق اليهود الأنجاس..

ودفعه دفعة شديدة ومضى، ودار عبدالمنعم في الشوارع مستسلما للأفكار والأوهام وللبرد القارص، طاف الأزقة متطفلا على الناس في الحوانيت المفتوحة ومتطلعاً إلى النوافذ الضيقة الطفيفة الضوء والقمريات الملونة، ليس هناك من يقرأ مأساته أو يتطوع لينقذه من التشرد، والله لم يشأ بعد أن يقذف في قلب شخص ما الرحمة، وهذه المدينة الشاسعة بدورها العالية تريد أن تلفظه إلى خارجها، وفكر أن هناك أشخاص آخرين يجولون مثله في الطرقات والأزقة، تحاول المدينة أن تلفظ أجسادهم ..

أخذ الليل يتوغل في أعماق نفسه، والوجوه البشرية أخذت تتلاشى، واحتل برد الشتاء المدينة ، فأحس بأطرافه تتخشب والرعدة تسكن عظامه وتثبط حركته، كانت ليلة شديدة الحلكة، وآخر ضوء للنوافذ المستورة بالأقمشة البيضاء انطفأ، وبات يتعثر بقطط ميتة قذفتها الأيدي ـ في وقت سابق ـ من النوافذ، واقتربت أصوات الكلاب الضالة التي تتصارع لأتفه الأسباب، ولا شك أن رائحته

تجذبها، وتوحي لها بضرورة الانتقام من بني البشر، أولئك الذين ينصبون لها المصائد، ويدسون لها قطع الخبز المسمومة، ويتلذذون برؤية أطفالهم يطاردونها ويعذبونها أيام التزاوج ، وفي خضم اللقاء الحميم ينظر الذكر إليهم نظرة ملؤها الحقد، وترمقهم الأنثى بغيظ أكبر وهم يبددون حلم اللذة، رغم ذلك لا تفكر بالانفصال عن ذكرها، تود أن تناجي الأطفال :

" لو فصلنا آباءكم عن أمهاتكم عند اللقاء ماذا كان سيحدث؟ "..

فكر عبدالمنعم، هل فصل بين زوجين من الكلاب أثناء التزاوج، لقد فعل ذلك مع أصدقائه عدة مرات، وجدوها في بناية مهجورة تمارس الحب بطريقتها العفوية الخالية من الإجراءات المعقدة، أي غواية تدفع طفلاً ساذجاً إلى التفكير بإلحاق الأذى بالحيوانات المتزاوجة، الكبار من أهالي المدينة يزجرون الكلاب عن اللقاء خوفاً من أن تراها النساء، فتفضح ممارساتهم القصيرة المنفعلة، التي تأتي استجابة لأوهام الرغبة الجنسية التي تصنعها عصارة القات بأجسادهم في ساعات النهار..

الآن توشك الكلاب أن تنتقم منه، تندفع مجموعة لا يعرف تعدادها ناحيته مصوبة أنيابها الحادة، وفي الوقت المناسب وضع راحتيه في تجويف جدار يلتصق به، وتسلق غريزياً متمسكاً بتجاويف أخرى، يدفعه للنجاة الخوف وخطورة الأنياب القاطعة، وما يشاع عن مجانين وشحاذين قطعت أوصالهم، وعثر على بقاياهم فوق الأرصفة.. قفز عبدالمنعم إلى سطح تراب ناعم داخل حديقة منزل مهيب، وعكست أضواء السماء صور ثمار دانية على الأشجار، ودفعته غريزة الجوع أن يقطف من شجرة ثلاث ثمرات، ثم مضى يبحث عن مأوى مناسب لكي يلتهم غنيمته بأمان.. كانت الثمار حمضية ذات رائحة مميزة، وما كاد يخطو نحو هدفه بضع خطى، حتى انفتح باب ودوت صرخة :

ـ قف مكانك أيها اللص ..

أظهرت أضواء الفانوس الساطعة رجلين يقتربان وهما يشتمان، كانت لهما صورتين فجتين وجسدين عملاقين، تغطيهما ملابس رسمية عادة ما يستخدمها العكفة ، أمسكا الفتى من رقبته وجلبا معهما الثمرات كدليل على الجناية.. قال عبدالمنعم :

ـ الكلاب تطاردني ..

صفعه العكفي الممسك به على خلفية رقبته وأجاب :

ـ قل هذا أمام قاضي العقوبات..

وسيق إلى غرفة باردة ليس بها ضوء ، والقي إليه غطاء رقيق، ورغم الخوف الذي أصابه فقد عد هذه الصفقة رابحة، سيبيت إلى الصباح وليكن ما يكن.. تمدد على حصيرة خشنة متدثرا بالغطاء وغرق في النوم .. وأفاق بركلة قدم قوية، فنهض فزعا ودنا من الرجل الذي ركله، والتفت إلى الغرفة وتذكر ما جرى في المساء، وبعد مدة من الوقت ساروا به

إلى مبنى منحوت على جداره الخارجي ميزان يشبه موازين باعة اللحوم، وهذا يوحي إلى طبيعة عمل المحاكم التي تحكم بميزان الشرائع السماوية، وهناك مثل الفتى أمام قاضي العقوبات، ووجهت إليه تهمة السرقة مرفقة بالثمرات، وتهمة أخرى خطيرة هي السطو على منزل أحد الأشراف في المدينة ...

لم ينكر عبدالمنعم هذه التهم، دخوله البستان وسرقته للثمرات ، ولاحظ قاضي العقوبات وجهه

المألوف ولكنه تجاهل السؤال عن ذلك لئلا تؤثر الإجابة على سير العدالة، كان الاستجواب قصيرا يدونه كاتب صغير على ورق خشن بواسطة ريشة طائر تغمس بمادة سوداء ..

وأتى الرجلان اللذان ضبطاه في البستان وشهدا ضده، واستدعي قاضَ طاعن السن لتقدير عمر الفتى، والتحقق من أهليته للحد الشرعي ، وبلوغ الأشياء المسروقة القيمة التي يطبق فيها الحد .. حدجه القاضي الهرم من رأسه حتى قدميه ، ثم وقف بمحاذاته، كان قصيرا محدودب الظهر، رمق القضاة بطريقة توحي بأن الجاني أكبر طولا، وألقى نظرة فاحصة على الثمرات، وتمهل قليلا كأنه يجري عملية حسابيه ..

وأخيرا أفصح عن استحقاقه للحد الشرعي الذي تقره الشريعة الإسلامية على السارق، مد الكاتب ورقة الحكم وريشة الكتابة إلى عبدالمنعم وأشار بيده إلى التوقيع ، قائلاً ببرود :

ـ التوقيع في هذا المكان ...

سأله الفتى بدهشة :

ـ ما هذا ؟

ـ هذا حكم الله ؟

أخذ يتأمل الورقة ووقعت عيناه على عبارة تهجاها بصعوبة ،"يطبق عليه حد السرقة أن تبتر يده اليمنى...

أطلق صرخة جنونية، وراح يعدو كما فعل عندما طاردته الكلاب، وتقافز وراءه العكفة، وساقوه إلى ماسك الساطور، فتمنى أن يداهمه الموت في تلك اللحظة الرهيبة، أخذ يقاوم ويصرخ ويستجدي نجدة الله وجميع الأولياء والصالحين، كانت العملية سريعة ومؤلمة، ختمت بغمس معصمه المتبقي في جالون القطران لإيقاف نزف الدماء، شعر بهم يتحركون حوله في بادئ الأمر حتى تلاشت تلك الحركة وهمد كل شيء .. أفاق بعد مدة بدون كف، لقد خسرها بسهولة، وجد تضامنا خفياً وتأثراً يتألق في عيون القضاة والعكفة ، لم يجرؤ حتى ذلك الحين على النظر إلى مكان القطع .. وهرول خارج المبنى وهو يبكي بمرارة . بات يفكر أن موته في ظل هذه الحالة صار وشيكاً، وفي ذلك رحمة له من العذاب

وعيشة التسول وعطاء المحسنين، ها قد زادت فرص تشرده وضياعه، وبعد أن فقد ذراعه لم يعد بوسعه أن يمارس مهنة الزينة أو أي مهنة أخرى، بات مكتوباً عليه أن يصير عالة على أهل الخير، لابد أن يكون متزلفاً ووضيعاً، وينبغي أن يروض نفسه على تقبل إهانات المحسنين الأوغاد، الذين يقذفون للفقراء بقايا الطعام في وضح النهار، وذلك لكي تتحسن صورهم الشائنة، ويثبتوا حسن شمائلهم، ويطهروا أموالهم المختلسة من هنا وهناك، لكم يكره هؤلاء المنافقين الذين يطمعون أيضا بالفوز برضاء الله والجنة، وكم يكره أيديهم المرتجفة التي سيمدونها إليه بالإحسان، وكم أضحى يمقت نفسه بعد أن آلت إلى هذا المآل، خرج من المدينة إلى القاع، وفي شارع البوساني وقف على حافة بئر متأهبا للسقوط ، كان متهيباً ومتشنجاً، ولم تزجره أقوال خطيب حارة الفليحي المتكررة،" قاتل نفسه في نار جهنم".

أغمض عينيه، وقرأ بعض السور والآيات الصغيرة من القرآن، أطال أمد القراءة لكي يعطي نفسه فسحة لوداع الحياة المضطربة من حوله، استنشق الهواء ملء رئتيه وأدار عينيه إلى كل شيء يقع في مجالهما، تصفح الوجوه الساذجة للسابلة الذين يعبرون الشارع جيئة وذهابا، وليس لهم هدف

سوى البقاء على ظهر الدنيا الفانية بضع سنوات أخرى،وبينما هو يكافح بلا هوادة غريزة البقاء التي

تحثه على التراجع عن قراره، أتاه صوت موشي من الجوار :

ـ هيه ، عبدو، ماذا حل بك ؟

أجاب بيأس :

ـ كما ترى ..

ـ هل سرقت ؟

ـ نعم .كنت جائعاً ..

ـ زهرة تبحث عنك، إننا راحلون، ألا ترافقنا ؟

هز الفتى رأسه موافقاً ومضى يتبعه بصمت، لقد تغلبت داخله إرادة الحياة، وما إن وصلا إلى منزل زهرة، حتى تجمدت الأخيرة فزعا وحدقت في وجه موشي مستفسرة ، وعندما أخبراها بما حدث بكت وتألمت كثيرا هذه المرة، وردت اللوم الشديد على نفسها ، أدركت أنها سيئة الحظ، وأن ثمة قوى مجهولة تناصبها العداء، وهذا دفعها أن تتحسر على عمرها المهدور، وتتمنى في تلك الوهلة أن تنبت لأجسادهم أجنحة يطيروا بها من قاع اليهود.

وفي المساء سلَّم عولق عقود ملكية السمسرة والحانوت إلى صاحب سمسرة سوق الملح، وقبض منه مائة ريال ماريا تريزا، وهو ثمن بخس على عقار شهير، ولكن لم يكن هناك مجال للمساومة بسبب ضيق الوقت، كما تجاهلوا المنزل ومحتوياته

الذي لا تساوي شيئاً بالمقارنة إلى الخطر الذي سيكلفهم إياه انتشار خبر رحيلهم بين أبناء الطائفة اليهودية في القاع، وعند خلود الناس للنوم تسللوا إلى قارعة الطريق، ساعدتهم على الفرار ليلة ظلماء وعزيمة غير قابلة للتراجع..

وحين أفاق نزلاء سمسرة القاع صافحت عيونهم وجه رجل سمين عابس جالس على دكة الاستقبال، كان ذلك بالنسبة إليهم أمراً غريباً، لأنهم اعتادوا أن يفيقوا على وجه زهرة المشرق وصوتها الرخيم الذي يثلج الصدور، وبدا لهم ذلك كحلم شاهدوه في المساء، ولكن خبر رحيلها إلى مكان مجهول انتشر، وأفشاه المالك الجديد للسمسرة..

وتبعها اثنان من الناس، غيلان الذي أفرج عنه في صباح ذلك اليوم، ولا زال يطاردها لكي يفضحها أمام الملأ، أو يسترد منها عبد المنعم، والثاني زوجها السابق سالم عبدول الذي يريد أن ينتزع منها ابنته " حنا " التي بلغت العشرين، وهو السن الذي ينبغي أن تعود فيه إلى أبيها حسب الاتفاق بينهما في وثيقة فسخ الزواج التي تقدمت بها زهرة إلى الحاخام يعيش، وهكذا تحالف الرجلان على انتزاع الفتاة والفتى منها، واتهامها والنزيل العدني بالاختطاف.. وكان الحبر سالم عبدول أكثر فطنة من رفيقه في معرفة الاتجاه الذي سلكوه، والبلد الذي سيهاجرون إليه، وأسهل السبل للوصول إلى أرض

الميعاد عبر عدن، لأن السلطات البريطانية تقوم بتذليل السفر لليهود في كل مستعمراتها، وهذا يعني أن يجدا في السير، ومقابل حذق سالم تأتي خبرة غيلان في معرفة الطرق المختصرة، ويسألان الناس الذين يصادفونهم على قارعات الطرق وفي القرى التي يمران بها..

ويسمعا خبر زهرة وفريقها يخرج طرياً من الأفواه، حتى هُيئ إليهما أنهما سيصطدمان بهم في أحد المنعطفات، ويجزم غيلان أنه يرى آثار قدميها، ويشتم نثار أنفاسها في الأثير، ويسأل زوجها السابق عن حاله معها عندما كانت في عصمته، هل هي حورية من تلك الحوريات التي تصفها الكتب المقدسة، لا عظم في جسدها ولا فضلات ولا مخاط ولا نتن، أم إنها مجرد امرأة مغرية ترشح بكل أنواع الشرور والأقذار، وليس فيها ما يستحق العناء، ولكن سالم لم يعد يتذكر جسدها أو روائحها، ولم يجد شيئاً صادقاً يعبر به عنها سوى أنها امرأة لاهية ضاحكة تحرص أن تظل رجليها على الكتفين كثيراً، ولا تسقط إلا عندما تزرق المساحة البيضاء في عينيها، وهذا كان فوق طاقة حبر نذر نفسه للعبادة وخدمة الفقراء، واشتعل المزيّن غيلان غضباً، وشتم الحبر ولعن جميع أجداده، والحظ الذي جمعه به، ما له وللعبادة والفقراء، أليست الآلهة التي نضاجعها جديرة بأن نتعبد على جسدها مدى الحياة؟ وزهرة هي المرأة الأمثل في نظره..

ثم رد اللوم على نفسه، لأنه يطاردها منذ زمن بعيد، وهو يشتهيها من أعماق روحه، ولا يملك وسيلة للتعبير لها عن رغبته غير التصرف بعدوانية، وذلك لأنه لا يستند إلى أي إغراء من أي نوع، ولم يكن لديه للضغط عليها غير التلويح بفضح هفوتها، وهاهي الوسيلة تكاد تسقط من يده ..

وفي عدن اتجها صوب الميناء حسب إشارة الحبر سالم عبدول، كانت هناك سفينة يصعد إليها الناس، بريطانيون وأجانب وعرب، حاولا الصعود إلى متنها، ولكن الجندي البريطاني طلب منهما وثائق الرحلة، بلغة عربية ركيكة، أجاب الحبر سالم قائلاً بأدب :

ـ سنودع أقارب لنا من الشمال ..

نظر الجندي إلى ساعته، وقال بأسف :

ـ لم يعد الصعود ممكناً الآن، ستتحرك السفينة..

ـ أرجوك، لقد قطعنا مسافة كبيرة لنلقي عليهم نظرة..

التقط الجندي جهاز الاتصال متأثراً بدماثة الحبر اليهودي، ومتعاطفاً مع هويته التي تبرز واضحة في قفة رأسه وزنانيره، وأخذ يتحدث إلى الطرف الآخر، بلغة انكليزية مهذبة، واستغل المزين غيلان غفلته، وتسلل إلى داخل السفينة، وأخذ يبحث

كالمجنون حتى وجدهم في المقدمة يتأملون المياه ويتحدثون بمرح، فانقض غيلان عليهم وتشبث بزهرة وهو يصيح :

ـ أين تهربين مني يا قحبة؟ لن أدعك تذهبين إلى أي مكان ، سألحق بك حتى أطراف الأرض..

وأخذ عولق يدفعه عنها ويستنجد بانكليزية محضة، وتدفق جنود البحرية البريطانية، ونزعوها من بين ذراعية، وسحبوه بعيداً عن السفينة، وهو يصرخ بصوت عال :

ـ لا تدعوها تغادر، أرجوكم ، ستكون سعيدة معي....

وتلاشى الصوت ثم اختفى، وانبعث صوت محرك السفينة وتصاعد دخانها الرمادي، ورأت زهرة زوجها السابق سالم عبدول، وتكهنت أنه لم يأت من أجلها، بل من أجل حنا، كانت نظراته منكسرة وحزينة، وبعد قليل من الوقت، تلاشى خوفها وجسد سالم والميناء، وظهرت نوارس البحر البيضاء محلقة فوق الماء بمحاذاة السفينة ..

نبذة من سيرة المؤلف

ـ من مواليد عام 1978 م ...

ـ من محافظة إب،القفر،ومسقط رأسه قرية الحبلة..

ـ ليسانس علوم سياسية من جامعة صنعاء...

ـ موظف في وزارة الثقافة..

ـ عضو اتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين ..

ـ قاص وروائي .

ـ بدأ نشر أعماله القصصية في الصحف المحلية والدوريات العربية منذ مطلع عام 2003م ..

ـ ترجم له الأكاديمي الأمريكي مايكل سكوت قصص إلى الانكليزية وتصدرت قصته (صراع حتى الموتfight to the finish) الملف في مجلة بانيبال العدد (36)الذي خصص للأدب اليمني ...

ـ يكتب باحتراف وجرأة الكتاب المتحررين من أعماقهم ..

مؤلفاته :

ـ الطاووسة (رواية) من إصدارات وزارة الثقافة 2004م ..

ـ الباهوت (قصص) مركز عبادي للنشر 2005م.

ـ روح الحبيبة (قصص) عبادي للنشر 2006م ..

ـ الدائرة المقدسة (رواية) عبادي للنشر 2008م ..

البريد الإلكتروني:

bassamshmsaldn@gmail.com